سلسلة تجديد الماركسية (4)

الشيوعيون

بين المحافظة والتجديد

د. طالب غريبة

حقوق الطبع محفوظة

1996

دار الينابيـــع

«للطباعة والنشر والتوزيع»
دمشق ص.ب 6348
☎ 3324914

☜ التوزيع في لبنان:
دار الفارابي
بيروت ـ ص.ب: 11/3181
☎ 305520

☜ التوزيع في مصر:
دار النهر
– 20 ش الطوبجي ـ خلف مرور الجيزة
ـ ت ـ فاكس 3489018

سلسلة تجديد الماركسية (4)

الشيوعيون
بين المحافظة والتجديد

د. طالب غريبة

المحتويات

1 ـ مقدمة 7

2 ـ الفصل الأول: مفاتيح النقاش 11

3 ـ الفصل الثاني: تضاريس الصراع 23

4 ـ الفصل الثالث: وطنية الشيوعيين وأفضالهم 39

5 ـ الفصل الرابع: أسباب ارتباط الشيوعيين بالسوفييت 51

6 ـ الفصل الخامس: تجاعيد القديم 65

7 ـ الفصل السادس:القيد المثلث (لينين ـ أكتوبر ـ سوفييت) 98

8 ـ بدلاً من الخاتمة: نحو المستقبل 131

المقدمة

يلاحظ المتتبع للتطورات في الحزب الشيوعي السوري خلال السنوات القليلة الأخيرة، يلاحظ بالعين المجردة كم هي شاقة ومضنية ومؤلمة عملية التغيير الجارية التي أملتها التغيرات الكبيرة على الصعيد الدولي وافرازاتها المختلفة، وكذلك متطلبات التطور والنمو الداخلية والمستجدات العربية والاقليمية وغيرها. وإذا كان طبيعياً ومألوفاً أن يولد الجديد عبر الآلام، فإن الولادة هنا متعثرة جداً. والآلام مبرحة، تكاد تصيب الجسد بالوهن والاعياء إن لم يكن أكثر من ذلك.

لماذا كل هذا التعثر وكل هذا التردد في عملية التغيير ؟ لماذا كل هذه المعاناة والآلام؟ ماالذي يعيق الشيوعيين عن التجديد والتغيير الجذريين المناسبين؟ وماهو التجديد المناسب والتغيير المطلوب ؟ هذه، وأسئلة كثيرة غيرها تسمعها من الشيوعيين وأصدقائهم ومؤيديهم والمتعاطفين معهم، وتقرؤها في العديد من وسائل الاعلام الشيوعية واليسارية عموماً.

ومما لاشك فيه أن محاولات جدية فردية وجماعية تجري على قدم وساق من أجل وضع إجابات وإيجاد حلول.

وليس سراً أن أحد أهم مظاهر الإعاقة هوأنه مايزال صعباً على عضو الحزب الشيوعي أن يعبر بصراحة وعلانية عن رأيه بالحزب والحركة الشيوعية، ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، وأن يبوح بكل مايجول في رأسه من أفكار، ومايدور في خلده من تساؤلات وما يعتمل في نفسه من انفعالات، ومايحدوه من أمل في الخروج من الأزمة والمأزق والانطلاق إلى رحاب المستقبل على طريق التقدم والعقلانية والديمقراطية وصولاً إلى اشتراكية مغزاها وغايتها وطن حر وشعب سعيد.

والصعوبة كامنة أساساً في عقلية وأساليب وممارسات غير ديمقراطية تراكمت على مدى عقود طويلة، وترسخت وأضحت عائقاً كبيراً يعرقل حركة الحزب والعملية الثورية الجارية فيه حالياً بقصد تطويره وتجديده. وليس من النادر أن يعبر عن تلك العقلية والأساليب والممارسات بطريقة متخلفة وبشكل محزن بقدر ماهو مخز أيضاً.

غير أن الانصاف يقتضي منا القول بأن الصورة تتغير نحو الأفضل والأحسن.

لقد فتحت في الحزب نوافذ عديدة ومتنوعة يدخل منها النور والهواء النقي، وتنمو داخله دون توقف نبتات الديمقراطية وحرية الرأي والكلمة، وبدأت الحياة تدب في ورشة العمل الفكري والإبداعي، وأقلعت قاطرة التغيير

بالرغم من كل العقبات والمعوقات والعراقيل التي تصادفها في كل خطوة، وبالرغم من المحاولات المختلفة لربط القاطرة بحبال غليظة لمنعها من تجاوز نقاط معينة أو لشدها نحو الخلف.

وجاءت نتائج المجلس الوطني للحزب المنعقد في الفترة مابين 12 و14 تموز عام 1995، جاءت تأكيداً ودعماً لمسيرة الايجابيات في الحزب، حيث حصل تقدم ملحوظ في طرح مجموعة من القضايا الفكرية والسياسية.

ويجب ألاّ نغفل عن الإشارة أيضاً إلى أنه توجد في الحزب (في جميع فصائله وحتى بين أولئك الذين خرجوا من التنظيم) توجد فئة تزداد انغلاقاً وتزمتاً وتشبثاً بالقديم. إنها تقدس الماضي، وتبدي ـ ككل الحركات السلفية «الأصولية» ـ حنيناً مرضياً إليه. لقد تجاوز «الثبات على المبدأ» عند هذه الفئة حده، وانقلب إلى ضده، انقلب إلى «عزّة بالاثم».

وإذا كانت للحزب الشيوعي السوري خصوصيته المميزة من حيث اشتراكه في الحكم والسلطة وسيادة عبادة الفرد مدة طويلة فيه، ومن حيث توزعه على فصائل متعددة والخ.. فإنه يعاني، عموماً، من المعضلات نفسها، ويواجه المشكلات ذاتها التي تعاني منها وتواجهها الأحزاب الشيوعية العربية الأخرى، أو على الأقل تلك التي لنا بعض الآطلاع على أحوالها وهي الأحزاب المشرقية(بلاد الشام ومصر والعراق). لذلك وضعنا لكتابنا هذا عنواناً عاماً هو«الشيوعيون بين المحافظة والتجديد»، بالرغم من أنناسنركز

دراستنا على الحزب الشيوعي السوري. وسنستشهد بوثائقه وصحافته وبصحافة الحزب الشيوعي اللبناني بسبب توفرها بين أيدينا.

إن على الشيوعيين اليوم معالجة مسائل حيوية ومصيرية كبيرة، جوهرها عصرنة الأحزاب الشيوعية وتجذيرها وطنياً. إذ أن «المطلوب ليس مجرد إجراء تغيير داخل الحزب الشيوعي يتناول بعض مرتكزات عمله الفكري والسياسي والتنظيمي، وإنما المطلوب إحداث تغيير يشمل الحزب نفسه من حيث الطبيعة والهوية والوظيفة والدور والبرنامج[1]»

وهذا الكتاب محاولة لرصد واقع الشيوعيين القائم ولتقصي أسباب الأزمة عندهم، مع وقفة عند ما نراه من أهم الكوابح والمعوقات التي تحول دون إجراء عملية تغيير جذرية في صفوفهم، مع تقديم بعض التصورات والاقتراحات التي نراها مفيدة للخروج من المأزق، ولقيام حركة اشتراكية يسارية ديمقراطية ذات حضور جماهيري واسع ومؤثر محلياً وعربياً.

---

1 سعد الله مزرعاني: «الحزب الشيوعي اللبناني مبررات وأشكال وبرنامج التغيير» الجزء الثالث مجلة «النداء» العدد 143(1995/2/25).

الفصل الأول

مفاتيح النقاش

حدثني صديق أنه شاهد في إحدى الصحف (السوفييتية إذا لم تخني الذاكرة) شاهد رسماً كاريكاتورياً يمثل مبدأي النقد والنقد الذاتي، حيث جرى تصوير مبدأ النقد على هيئة شخص يرمي شخصاً آخر بحجر. أما مبدأ النقد الذاتي فقد جرى تصويره على هيئة شخص يقف في غرفة ويرمي حجراً إلى الأعلى، فيرتطم بالسقف ويسقط ليقع على رأسه. تذكرت هذا الحديث لدى قراءتي لتقرير اللجنة المركزية أمام المجلس الوطني للحزب الشيوعي السوري، وعلى وجه التحديد الفقرة التي تقول: «وقد انطلق الحزب من ضرورة النظرة العلمية الموضوعية النقدية لكل ماحدث ويحدث.وفي هذا الضوء نظر إلى أحداث العقد الأخير بخاصة، مبتعداً عن أساليب جلد الذات والآخرين، مستفيداً من الدروس المستخلصة من تلك الأساليب المدمرة التي اتبعت».

مايهمني من الأمر هو مصطلح «جلد الذات» الذي كثر استخدامهفي الآونة الأخيرة في أدبيات الأحزاب الشيوعية العربية والأحزاب المماثلة أو المشابهة لها أو القريبة منها. فمن الواضح أن هذا المصطلح قد أدخل إلى التداول بقصد الوقوف في وجه أو على أقل تقدير، الحد من الموجة العارمة والمتصاعدة من التحليلات والدراسات النقدية التي يقوم بها مفكرون وباحثون وسياسيون ومناضلون من الشيوعيين أو الماركسيين أو من الصف اليساري عموماً، في ضوء التغيرات العالمية الكبيرة التي جرت في العقد الأخير، وأهمها انهيار الاتحاد السوفييتي وسقوط الأنظمة الشيوعية في أوروبا الشرقية وفشل ماأصطلح على تسميته «النموذج السوفييتي للاشتراكية»،ومن الواضح أكثر أن مصطلح «جلد الذات» يقدم على أنه الصيغة السيئة أو الشكل الردىء للنقد الذاتي، أوأنه النقد الذاتي وقد تجاوز حدوده. دون أن يترافق ذلك، طبعاً، مع توضيح الحدود التي ينتهي عندها النقد الذاتي ويبدأ جلد الذات.

إذا أخذنا المعنى الحرفي للكلمة، فإنه يوجد فرق كبير بالنسبة للانسان الفرد العادي بين أن يقف أمام الناس ليقول إنه أخطأ في القضية الفلانية، ويعتذر عن ذلك، ويعد بعدم تكرار الخطأ وبين أن يمسك كرباجاً وينهال على نفسه ضرباً وجلداً!! ولكن، بالمعنى السياسي للكلمة، وبالنسبة لحزب سياسي أو منظمة سياسية أو هيئة مسؤولة أو ماشابه ذلك، ماهو الفرق بين جلد الذات والنقد الذاتي ؟ ! أليس النقد الذاتي هو أن يقف حزب من

الأحزاب ليعترف أمام الشعب بأخطائه، بخاصة في القضايا المصيرية الكبرى، ويشير إلى أسباب ومسببات تلك الأخطاء، ويعتذر عن الأضرار التي لحقت بالشعب والناس من جرائها، ويحدد مسارات التصحيح ومسالك تدارك النواقص، ويعد بانتهاج سياسة صائبة وسليمة؟! وإذا كان النقد الذاتي على هذا النحو أفليس هو نوع من جلد الذات؟! (أؤكد مرة ثانية بالمعنى السياسي للكلمة وبالنسبة لحزب سياسي). باعتقادي، أن الجميع يعرفون أن هذا هو بالضبط المعنى الحقيقي للنقد الذاتي. ولكنه معنى غير مستحب، وغير مرغوب فيه، وبالتالي فهو مرفوض. لأنه يتطلب شجاعة وحكمة كبيرتين هما، للأسف الشديد، غير متوفرتين. لذا يجري التهرب من هذا «النقد الذاتي » الحقيقي لأنه محرج وصعب. وتلصق به تسمية كاريكاتورية تشي بالسوء والرداءة وتدعو إلى النفور هي تسمية «جلد الذات» ويستعاض عن ذلك بتعابير مطاطة وهلامية مثل ومع الانتصارات العظيمة التي أحرزت، وبالاضافة إلى الانجازات الكبرى التي تحققت، وبالتوازي مع المآثر الخالدة التي تمت، فقد وقعت هنا وهناك بعض النواقص والسلبيات، وحصلت بعض الهفوات والثغرات، وحدثت بعض الأخطاء، وجل الذي لايخطىء !!! وماشابه ذلك وهلم جرا...إن المشكلة الحقيقية هي في إيجاد شخص مالايقبل بمثل هذا النقد الذاتي ! بل أجزم بأن كبار مجانين العظمة وطغاة التاريخ المعروفين من أمثال هولاكو وهتلر وموسوليني وستالين وصدام حسين مستعدون، بكل رحابة صدر، للتفوه بمثل هذه الأقاويل ووضع تواقيعهم

تحتها. ولن يترفع عنها كل رجال الدين والدنيا! ولكن حتى هذا «النقد الذاتي » المخادع والمريح هو، في التحليل الأخير، بمثابة ضرب من ضروب جلد الذات، إنما بريش نعام أو بفروة أرنب أو ثعلب، حيث لا أذى ولاألم ولامن يحزنون !! إنه ضحك على الذقون!.

رب معترض يقول إن المقصود هو عدم التركيز على ذكر السلبيات والنواقص والأخطاء، وضرورة الحديث عن الايجابيات والانجازات والنجاحات أيضاً. إنه منطق سليم وموقف صحيح دون ريب. غير أن المسألة ليست بهذه البساطة. لذا ارتأينا إبداء الملاحظتين التاليتين حولها: أولاً إن جميع أصحاب الدراسات والمقالات النقدية الشيوعيين (من أعضاء الأحزاب الشيوعية العربية)يكتبون ـكما يبدو لي وكما أعتقد وأثق ـ بدافع الحرص عل أحزابهم وبهدف تطويرها وتحديثها و عصرنتها ودفعها إلى أمام، معتبرين، بحق، أن نقطة الانطلاق هي كشف الأخطاء والنواقص والأمراض والشوائب الكثيرة التي تراكمت طويلاً طويلاً، من أجل الخلاص منها وتخطيها وتجاوزهاوالانتقال إلى وضع صحي يسمح بإجراء تغيير جذري وجدي.

إن لسان حال هؤلاء الكتاب يقول مخاطباً رفاقهم الشيوعيين:

لاتحزنوا ولاتتكدروا، فالنظام السوفييتي انهار تحت ثقل أخطائه، وهو في كل الأحوال ليس النموذج الأفضل والأمثل الذي نصبو إليه، وأن المستقبل أمامكم، والماركسية مازالت أداة معرفية عظيمة للتحليل العلمي والنضال

الاجتماعي، شريطة أن يجري التعامل معهـا «ماركسياً » أي بأخذهـا روحـاً وجوهراً، واستخدام منهجها. بكلمة، يجب تحكيم العقل وتقنين العواطف!.

وثانياً إنه مامن حزب شيوعي عربي قام بنقد ذاتي بنـاء شـامل وصريـح وعلني وواضح.إن ماتم في هذا المجال هو إجراءات وانتقادات ومحاولات مجتزأة ومبتسرة (تختلف من حزب إلى آخر من حيث الأهمية والكمية).

لقد كان ومازال موجوداً ميل واضح لدى العديد من الأوساط القياديـة في هذه الأحزاب للتهرب من النقد الذاتي ولتمييـع القضايـا الجوهريـة ولفلفـة الأمور وتزيين الماضي وتلميعه للابقاء على البنية والأشـكال القديمـة والحفـاظ على المألوف والمعهود والمعتاد، لأنها مريحة جداً لها!.

إن مثل هذه المواقف غـير الفعالـة أو المائعـة أو التسـويفية للقيـادات الحزبيـة، بالإضافة إلى وجود قوى رجعية ظلاميـة متخلفـة، اضطـرت المجددين وأجبرتهم على وضع اليد بالملموس على الجـرح، أو وضـع النقـاط علـى الحـروف. فقدمـوا كشوفاً مسهبة وصادقة للأخطاء والنواقـص والسـلبيات وحـددوا مكـامن الخلـل. وماكان بوسعهم إلاّ أن يفعلوا ذلك.لأنه من غـير المعقـول أن يجـري الحـوار علـى مبدأ «أقنعناهم برأيهم» كما يمزجون عندنا في الوسط الجامعي!.

لقد أردنا لمسألة هامة ومركزية مثل مسألة النقد الذاتي أن تكون مفتـاح النقاش الأول.أما المفتـاح الثـاني فمرتبـط بقضيـة أثارهـا أيضـاً تقريـر اللجنـة المركزية للحزب الشيوعي السوري أمام المجلس الوطني، حيث جاء في معرض الحديث عن النشر والصحافة الحزبية: «...والأمر هـو أن هـذا الرفيـق أو ذاك

الكاتب يطرح أفكاراً تسيء للحزب وعمله وتتعارض مع توجهاته الأساسية. الأمر الذي ألحق ضرراً بالحزب وعمله، وهذا مانرى ضرورة الانتباه له وأخذ مشاعر الحزب العامة بشأنه».

إن القضية التي سنعالجها هي «أخذ مشاعر الحزب العامة» وحتى تكون الصورة واضحة نقدم المثال البسيط التالي

كاتب ما ينشر مقالاً ينتقد فيه بشدة لينين وثورة أكتوبر والاتحاد السوفييتي.

ـ الحزب الشيوعي السوري يقابل ذلك بالاستنكار والسخط الشديدين. وتثور ثائرة أعداد كبيرة من أعضائه بمن فيهم بعض القياديين ويصل الأمر بعينة منهم إلى درجة الهستيريا. فتتوتر علاقاتهم مع الرصانة والرزانة ويقعون بأزمة مع اللباقة واللياقة!

من المخطىء ومن المذنب في هذه الحالة؟!

من وجهة نظري، فإن المخطىء والمذنب هو الحزب، والحزب وحده فقط. لأنه أضفى على لينين واكتوبر والاتحاد السوفييتي 'هالة من الألوهية والقداسة، بحيث لايسمح إلا بأداء طقوس العبادة والتبجيل والتعظيم.وأي نوع آخر من التناول والمقاربة هو من المحرمات والمستحيلات. إن هذا الأمر لايتعارض فقط مع ألف باء الماركسية التي يعلن الحزب باستمرار اهتداءه واسترشاده بها، وإنما يتعارض مع مفهوم الحزب كحزب سياسي أو منظمة سياسية وليس ديناً أو طائفة دينية أو محفلاً دينياً مغلقاً.

إنني كرجل لطيف ومهذب لا أناقش ولايمكن أن أناقش جدتي المؤمنة جداً بأخطاء «مارجرجس» مثلاً، وأنتقد أمامها «مارالياس» ناهيك عن السيد المسيح! لأنها ستزعل وتغضب وتزداد تمسكاً باعتقاداتها.وستكون النتيجة أضراراً بأضرار. ومن هنا يبدو صحيحاً تأكيد الأحزاب الشيوعية وغيرها من الأحزاب العلمانية على ضرورة مراعاة مشاعر المؤمنين والجماهير المؤمنة واحترامها.ولكن، إذا كانت لدى بعض الشيوعيين أنفسهم مقدساتهم الخاصة سواء أكانوا أشخاصاً أم أحداثاً وتواريخ ورموزاً فأرجو أن يعلمونا بها رسمياً. وأنا من جهتي أعدهم بأنني سأعاملهم بكل الحذر والاحترام، وسأتظاهر أمامهم كما أتظاهر أمام جدتي بأنني أصدق كلّ ماترويه عن المعجزات التي تمت في قريتنا على يد مار الياس !.

قد يقول لي قائل إن كلامك صحيح نظرياً، ولكن ماذا تفعل والواقع العملي هو كما ترى؟وأجيب إنه واقع فاسد. يجب النضال ضده والتخلص منه وتجاوزه.

والخطوة الأولى في ذلك تكون بالكشف عن هذا الواقع وتشخيص عيوبه. وإذا كان هناك لوم وعتب وغضب واستنكار فيجب أن توجه لا إلى منتقدي الواقع الفاسد بل إلى أولئك الذي ساهموا في وجوده وترسيخه ودعموا ركائزه، ويحاولون حتى اليوم الدفاع عنه والحفاظ عليه. إذ هنا بالضبط تكمن الاساءة إلى الحزب وعمله. وتأكيداً للفكرة الأخيرة أكرر وأقول بأن تبعية الحزب المطلقة للاتحاد السوفييتي خلال عهود طويلة هي التي

تشكل إساءة إلى الحزب وعمله، وليس انتقاد هذه التبعية من قبل هـذا الرفيـق أو ذاك الكاتب !... ولايغيب عن بالي أن النضال، وبخاصة ضد واقع فاسـد، يتطلب في كثير من الأحيان أثماناً باهظة وضرائب مرتفعة. ولكن، ما العمـل وأبو الطيب المتنبي يقول

تلذّ له المروءة وهي تؤذي ومن يعشق يلذّ له الغرام

لقد وصلنـا الآن إلى مفتـاح النقـاش الثـالث الـذي هـو مفتـاح أسـلوب الكتابة وطريقتها، أوعلى الأصح، حدّة الكتابة وانفعالها.إنـي لكـثرة مـاسمعت وقرأت عن عيوب الكتابة المنفعلة، كـدت أقتنـع بـأن هـذه صفـة سيئة يجـب الاقلاع عنها لولا أنني قـرأت مؤخـراً في مجلـة «الثقافـة الجديـدة» العراقيـةرأياً مغايراً، يعبر عنه صاحبه على النحو التالي :«و لم تخل المناقشة من الانفعال، و هو ما يؤكد جدّية ماطرح[2]» ثم يستشهد بـالمفكر الماركسـي الروسـي الكبـير جيورجي بليخـانوف الـذي يقـول «ليـس في الامكـان مناقشـة أيـة مسـألة اجتماعية من غير انفعال مالم تكن تافهـة في ذاتهـا، أو لم تصبـح بعـد مسـألة عاجلة بالنسبة للبلد المعيّن أو الزمن المعَين، ومن ثم فهي لاتهم إلا حفنـة مـن المفكرين في أبراجهم العاجية.أما حين تصبح مسـألة اجتماعيـة كـبرى مسـألة عاجلة، فإنها ستثير حتماً انفعالات قوية مهما دعا دعاة الاعتدال إلى الهدوء».

---

2 نصير سعيد الكاظمي :«بين تسييس الثقافة وتثقيف السياسة»ـ مجلة «الثقافـة الجديـدة» العـدد 262 شباط و آذار 1995ص135.

إن كلمات بليخانوف هذه لاتحتاج إلى إضافة أو تعليق. فهي تضع النقاط على الحروف والمفتاح في ثقب الباب فينفتح بسهولة وليونة على النقاش الجدي الذي لايخلو من الانفعالات.

المفتاح الرابع والأخير ذو صلة بإدارة الحوار والسجالات الفكرية والأخذ والرد فيها، أو مايمكن تسميته بتقاليد النقاش. يقول الأستاذ كريم مروّة

«لم يعرف التقدميون العرب، أحزاباً ومفكرين، تقاليد النقاش والجدل فيما بينهم، إلاّ في شكلين، في الأغلب: إما في شكل نقد تجريحي هو أقرب إلى العداء منه إلى النقاش، أو في شكل نقاش أو نقد غير مباشر، لاتكاد تعرف فيه الجهة المعنية بهذا النقاش وهذا النقد[3]»

إنها ملاحظة مفيدة وجديرة بالاهتمام بشقيها، الأول الذي يدعو إلى نبذ وتجنب النقاش العدائي والنقد التجريحي، والثاني الذي يدعو إلى الوضوح والدقة والمباشرة.

حقيقة، أن جميع الآراء والأفكار، وبخاصة تلك التي هي مثار النقاش والتي يدور حولها الجدل والحوار، إنما يطرحها أناس معينون لكل منهم اسم وكنية، أو هيئات ومؤسسات ومنظمات وجهات لها تسمياتها المحددة أيضاً، وهي تنشر في وسائل إعلام مختلفة لكل منها مايميزه عن الآخر، وتصدر في

---

3 كريم مروة «نقاش مع فكر وبرنامج الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين» مجلة «النداء» العدد 140(1995/2/4).

أوقات معروفة حيث يجري تأريخها باليوم والشهر والسنة، وهذا كله يوفر إمكانية كبيرة للنقاش الواضح والدقيق والمباشر. إذ أن مناقشة فكرة معينة لجهة محددة (فرد أو جماعة) منشورة في مكان وزمان معروفين، تظل أجدى وأفضل وأمتع وأغنى من مناقشة تكثر فيها التعمية وصيغة الغائب أو المجهول مثل «هناك من يقول » أو «يرى بعضهم» أو «تُطرح آراء» وغيرها. علماً، وهذا ينبغي التأكيد عليه، أن الحياة أعقد بكثير من أن تؤخذ على الدوام بمثل هذه البساطة والشفافية والاستقامة.ففي أحيان كثيرة لابدّ من المداورة والمداراة ! ولكن، حتى في هذه الحالات، يجب بذل جهود إضافية لبلوغ مايكفي من الوضوح في الطرح.غير أن هذا جانب واحد من المسألة.أما الجانب الآخر فيتعلق بضرورة وأهمية إيصال رأينا بالكامل، إن أمكن، للجهة التي نحاورها ونتجادل معها سواء أكانت فرد اً أم جماعة، لنفرض، على سبيل المثال، أننا نناقش فكرة معينة لشخص محدد، صدرت عنه في زمان ومكان معلومين.هناك، بالطبع، احتمالات عديدة كأن نتفق مع تلك الفكرة، أو نرفضها جزئياً أو كلياً. وفي كل هذه الحالات يجب أن يكون رأينا واضحاً.ليس هذا فحسب، بل أكثر من ذلك، لنفرض أيضاً أن تلك الفكرة أثارت لدينا شعوراً بالسخط أو الاستنكار أو الإدانة.برأيي، أن نتيجة نقاشنا يجب أن تكون رسالة موجهة إلى صاحب تلك الفكرة تحمل إليه سخطنا واستنكارنا وإدانتنا. ولا أجد في ذلك غضاضة. إذ ما المانع ؟! شريطة ألاّ يتم الخروج على الأصول الأدبية والدبلوماسية المرعية.

إن أي شخص يطرح أفكاراً وآراء بأي من الوسائل الاعلامية والثقافية المقروءة أو المسموعة أو المرئية يقوم، بهذا الشكل أو ذاك وبهذا القدر أو ذاك، يقوم بفرض نفسه على الآخرين. وعليه في المقابل أن يتحمل ردود أفعال هؤلاء الآخرين. وإلا فليصمت، أو يكف عن هذه الأفعال !! وهذ ينطبق على الجماعات أيضاً مهما اختلفت تسمياتها وأشكالها.

بهذه المفاتيح الأربعة سنفتح أبواب النقاش الذي يدور على مدى فصول الكتاب التالية، والذي نريد له أن يكون علنياً، أمام أعين الشعب، يساهم فيه أكبر عدد ممكن من المهتمين، لأن الحزب شأن عام. وكلما ازداد اهتمام الناس به وشاركوه همومه ومشاكله، كلما كان ذلك أفضل وأفيد له.

الفصل الثاني

تضاريس الصراع

إن المعوقات التي تحول، في الوقت الراهن، دون تجديد جذري مناسب في الحزب الشيوعي هي المعوقات نفسها التي حالت في السابق دون تجذير الحزب وطنياً والتي منعته من تجنب الخطأ والوقوع بالمأزق والأزمة. ويأتي في المقدمة من هذه المعوقات ويقف على رأسها الارتباط الاندماجي والالتزام المطلق بالنموذج السوفييتي فكراً وممارسة ونظاماً وبناء وسياسة، والولع الشديد بذلك النموذج، والانجذاب الشامل إليه، والانشداد العاطفي الكامل نحوه.

إن كلمات :الإلتزام والولع والانجذاب والانشداد وغيرها من المرادفات لاتكفي للتعبير بشكل كافٍ عن ذلك التعلق العجيب الذي ملأ الأفئدة واحتوى العقول وملك العواطف وغمر الروح وجرى في العروق وانغرس في الخلايا واخترق الأنسجة كلها!!

لقد كان الاتحاد السوفييتي المعقل والموئل والمرتكز والأمل والمثل. كان بالنسبة لكثيرين تعويضاً عن البؤس والشقاء والاهمال والاضطهاد، ولآخرين

معبرا لتحقيق الذات ومنفذا لمكبوت النفس، ولغيرهم سندا ودعما وقوة. وصار بالنسبة لطائفة معينة من الناس مرتعاً للشهوا ت ومصدراً لمكاسب وامتيازات تفوق الخيال والتصورات.

لقد كان الحصن الحصين والركن الأمين والمقياس الذي تقاس المبدئية والثورية والصواب بمقدار القرب منه والتقرب إليه. والمشكلة الكبرى، بل المصيبة، هي أن هذه الحالة لم تنته بانتهاء الاتحاد السوفييتي وزواله كدولة وسقوطه كنظام. إن الوضع لايزال على حاله تقريباً حتى الآن.

والذي تغير هو فقط اتجاه المقارنة والقياس، حيث أصبحت« درجة السوء» تقاس بمقدار الابتعاد عن النموذج السوفييتي. ويجري التعبير عن هذه التقييمات علانية أو خفية أو مواربة، حسب الظروف والامكانيات.

ومع إدراكنا للتعقيد الكبير في اللوحة، وتشابك الخطوط فيها، واختلاط الألوان، وتنوع الانعكاسات، وتعدد اللونيات، فإننا نستطيع بشيءمن التبسيط طبعاً تقديم مايمكن تسميته خريطة تقريبية لتضاريس الصراع، يظهر من خلالها توزع التيارات أو المجموعات أو الأجنحة واصطفاف القوى فكرياً وسياسياً وتنظيمياً في صفوف الشيوعيين في الوقت الحاضر.

ونبدأ بما أصبح متعارفاً على تسميته بالتيار «الأصولي» والذي يوصف أيضاً، من خلال المعايير الحديثة، بأنه تيار يميني. وهي التسمية التي نجدها أنسب وأفضل، لذا سنستخدمها لاحقاً. يرى أنصار هذا التيار أنّ ذكر

الاتحاد السوفييتي بالخير، وتعداد فضائله وأفضاله، وإعلاء شأن انجازاته ومكتسباته، وايجاد المبررات لسياساته، وتفسيرسقوطه بالتآمر الامبريالي الصهيوني وخيانة بعض القادة، يرون في ذلك موقفاً ثورياً ومبدئياً وصحيحاً، عدا عن كونه نزيهاً وثابتاً. وينظر هؤلاء بعين الكراهية والعداء لكل من يحاول الإشارة إلى مساوىء وأخطاء ونواقص ناهيك عن جرائم النظام السوفييتي وبقية الأنظمة المنسوخة عنه، ولكل من يحاول تفسير أسباب انهيار ذلك النظام من داخله، ومن يحاول استخلاص الدروس والعبر من التجربة السابقة، ومن يحاول الاجتهاد في تطوير الفكر الاشتراكي بعيداً أو بغض النظر عن النموذج المنهار وأعمدته ومهندسيه وبنائيه. إن من يقوم بمثل هذه المحاولات يرمى من قبل اليمينين بتهم مختلفة تبدأ بنكران الجميل، مروراً بالانهزامية والعدمية والذعر، ولا تنتهي بالخيانة والعمالة والارتداد. وهناك من يرى أن مايجري ماهو إلا كابوس سخيف ومقيت لابد له أن يزول قريباً. وسيعود كل شيء إلى سابق عهده، كما كان قبل العام 1985، أي قبل بداية البيريسترويكا. ولايخفي اليمينيون عداءهم الشديد للبيريسترويكا وقائدها غورباتشوف، ويلعنون الساعة التي راح فيها الشيوعيون يعطون أهمية وأولوية للديمقراطية وحقوق الانسان!

وينبغي القول إن لهذا التيار حضوراً هاماً في صفوف الشيوعيين على اختلاف مواقعهم، وسواء أكانوا في التنظيمات أم خارجها.ويشكل هذا التيار

الأكثرية المطلقة في فصيل الأستاذ خالد بكداش، حيث يجاهرون بتمسكهم الشديد ليس باللينينية فحسب، بل وبالستالينية أيضاً.

أما التيار الغالب والأوسع والأكثر انتشاراً في الحزب الشيوعي السوري حالياً فهو التيار الوسطي الذي تتعدد فيه، نظراً لطبيعته، الميول والأهواء واللونيات والاجتهادات. أي أنه غير متجانس. ولكنه أقل تزمتاً وتشدداً وأصولية من اليمينيين.ويسعى ليكون أكثر موضوعية واتزاناً، وأوفر حظاً في القرب من الجماهير ومنطق العصر. غير أنه أخفق حتىالآن في الحصول على نتائج ايجابية تذكر. والسبب في ذلك يعود في رأينا إلى أن أنصار هذا التيار، بالرغم من أنهم فتحوا على المستقبل باباً أو أكثر ونافذة أو أكثر، فهم مازالوا أسرى الماضي يعيشون فيه بدرجات متفاوتة. فإلى جانب اليمين المحافظ يقف مباشرة أولئك الذين يمكن أن نطلق عليهم وصف «يمين الوسط».

إن هؤلاء يقرون بوجود سلبيات ونواقص في النظام السوفييتي، ولكن الايجابيات أكثر. هذا من جهة. ومن جهة ثانية فهم يرفضون بشدة الغوص في تفاصيل تلك السلبيات والنواقص. ولايقبلون بذكر أسماء ووقائع وأرقام وتواريخ. ويرون في ذلك تهجماً مقصوداً وتشويهاً متعمداً للفكر الشيوعي والاشتراكية وإلى ماهنالك. كما أنهم يقرون أيضاً بوجود أسباب داخلية لانهيار الأنظمة الشيوعية في الاتحاد السوفييتي وبلدان أوربا الشرقية، ولكن يظل للأسباب الخارجية النصيب الأوفر. وقد تجد متساهلين يقبلون بتقاسم

المسؤولية مناصفة (فيفتي، فيفتي) بين الاسباب الداخليه والخارجيه؛ ومنهم من يعبّر عن اقتناعه بأن بعض الجوانب في الماركسية اللينينية قد شاخت وفات أوانها، وأن بعض اجتهادات لينين وآرائه لم يصمد أمام الامتحان التاريخي، ولكن هيهات أن تحصل منهم مهما حاورتهم وجادلتهم على تحديد دقيق أو شبه دقيق لتلك الجوانب التي شاخت أو الآراء التي لم تعد صالحة. فهم يظلون يتحدثون في العموميات، ومن الصعب جداً أن يضعوا النقاط على الحروف.

أما مركز الوسط فتشغله مجموعة كبيرة نسبياً، تشترك مع مجموعة يمين الوسط بمواقفها وآرائها وتقويماتها المتعلقة بالنموذج السوفييتي، ولكنها تختلف عنها في أنها تعلن تخليها عن مفاهيم ومقولات محددة فات أوانها مثل «ديكتاتورية البروليتاريا» وتصرح برفض القمع والاضطهاد والارهاب، وتدين الستالينية إعلامياً، وتدعو إلى إقامة توازن دقيق بين المركزية والديمقراطية، وتطالب بالديمقراطية الحزبية التي تضمنها من وجهة نظر هذه المجموعة وبشكل واسع «قواعد التنظيم اللينينية» التي يجب العودة إليها والالتزام الصارم بها ! فهي الضمان الأكيد لتجنب العثرات والأخطاء وللسير على الصراط المستقيم، شريطة تطبيقها بشكل صحيح، دون أي توضيح لكيفية التطبيق الصحيح، ودون الاجابة على سؤال بسيط يتردد باستمرار، وهو لماذا لم تطبق هذه القواعد وفي مقدمتها مبدأ المركزية الديمقراطية بشكل صحيح سابقاً في أي حزب من الأحزاب الشيوعية في العالم؟!

ويلحظ المراقب الفطن بسهولة أن مركز الوسط ويمينه يسيطران على قيادة الحزب، ولهما فيها الغلبة والهيمنة. ويظهر ذلك بوضوح من خلال متابعة أحاديث وكتابات وتصريحات وخطابات أعضاء المكتب السياسي وماتنشره جريدة «نضال الشعب» لسان حال اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري.

ولاننسى فئة لابأس بها يمكن تسميتها بـ «يسار الوسط» وتضم الراغبين بتجديد الحزب جذرياً دون أن تكون لهم المقدرة على تجديد أنفسهم هم جذرياً. ويبقى هؤلاء قريبين من جماعة المركز. ولكنهم يزيدونهم في النفور من مبدأ المركزية الديمقراطية، كما أنهم يرون ضرورة إعادة النظر عموماً بأسس التنظيم اللينينية التي وضعت قبل حوالي قرن من الزمان وفي ظروف بلد محدد هو روسيا ويطالبون بإجراء تغييرات كبيرة وجذرية في الحزب يأتي على رأسها تعميق الديمقراطية فيه والخلاص من الإرث الستاليني القمعي وعبادة الفرد و«احتكار الحقيقة».

إلا أن رؤيتهم هذه تظل في ضوء الماركسية اللينينية التي يضيفون إليها الصفات المتجددة والمتطورة دون أن يقدموا إضافات متجددة ومتطورة على الأفكار والمفاهيم. وهم في الوقت الذي يرفضون فيه تأليه لينين وتقديس اللينينية، كما كان سائداً في السابق، يصرون على التمسك باللينينية التي تظل عندهم متممة ومكملة للماركسية، وتظل هادياً ومرشداً ولكن بفهمها كمعنى ومغزى وجوهر وليس كنصوص وتعابير للحفظ ومقولات للتطبيق الحرفي بغض النظر عن الزمان والمكان.

وأبرز تجليات هذا المغزى بنظرهم هو ثورة أكتوبر التي تظل اشتراكية وعظمى، أرست دعائم نظام اشتراكي حقق انجازات تاريخية جبارة. ولكن لحقت به تشويهات كبيرة وكثيرة سببها الأول هو الانحراف والابتعاد عن اللينينية الحقة وعدم فهمها بشكل علمي وموضوعي، الأمر الذي أدى في نهاية المطاف مع تراكم الأخطاء إلى الانهيار الذي كان من الممكن تلافيه أيضاً لو أن البيريسترويكا تمت بجرعات أقل وخطوات أبطأ!!

والتيار الثالث والأخير هو التيار اليساري، ويضم المجددين أو الديمقراطيين. وهؤلاء أقلية في الحزب. وأقلية مضطهدة (بفتح الهاء) إنهم يصعدون عبر درب الآلام إلى الجلجلة، تجلدهم في كل خطوة نعوت وصفات وتسميات واتهامات مختلفة ومتنوعة أبسطها وأكثرها لطفاً وأدباً وتسامحاً كلمات مثل «التطرف» و«الشطط» و«تجاوز الحد» و«الزيادة عن اللزوم»!!.

ولكن... التطرف بالنسبة لماذا ؟ والشطط عن ماذا ؟ وأي حد هذا الذي يجري تجاوزه؟ وماهو اللزوم الذي يجب ألاّ يزيد عليه أحد؟ إنها أسئلة منطقية تتبادر مباشرة إلى الذهن وتفرض نفسها.

لو تعمقنا قليلاً في هذه النعوت والصفات والاتهامات الناعمة والمخففة لوجدنا، دون كبير عناء، أن أكثرية الشيوعيين قواعد وقيادات تفترض سلفاً أن هناك حدوداً للتجديد يجب عدم تجاوزها، وأطراً معينة يجب عدم كسرها، وقواعد يجب عدم الخروج عليها، وسقفاً لايجوز التحليق فوقه، ومألوفاً وموروثاً ومتعارفاً عليه لايسمح بالمساس بها.

تصوروا لو أن الناس على مـرّ العصـور كـانوا يضعـون حـدوداً للتطـور وسقوفاً للتجديد، ويرسمون خطوطـاً حمـراء لهمـا، ويفرضـون قيـوداً عليهمـا، ويحددون لهما أطراً وقوالب واتجاهات مسبقة؟!

إن المستوى الحضاري للبشرية ماكان ليبتعد كثيراً عن المسـتوى البدائي في ظل مثل هذا التجديد المهيض الجنـاح والتطـور المشـوه والمبتـور. هـذا مـن جهة. ومن جهة ثانية لابدّ من التساؤل عما يجعل حدوداً وقوالـب واتجاهـات وقواعد وأطراً ما صالحة لكل زمان ومكان ؟! أهو صحتها المطلقـة أم قدسـية أصحابها ؟ ثم من يقرر هذه الصحة وتلك القدسية؟!...

إنه لأمر مؤسف حقاً أن تطرح مثل هذه الأسئلة والتساؤلات على أناس ما انفكوا يوماً عن الاعلان بأنهم يهتدون ويسترشدون بالماركسـية ومنهجهـا المادي الجدلي التاريخي الذي «لاشيءثابت أو نهائي أو مقـدس» بالنسـبة لـه، بحسب فريدريك أنجلس.

إن الصعوبات الكبرى التي تواجه المجددين في الحزب ناجمـة أساسـاً عـن محاولاتهم الجادة لاستخدام المنهج الجدلي، وتنطحهم لمعالجة وانتقاد ومراجعـة قضايا وأفكار ونظريات كانت (عند الجميع) ولاتزال (عند الأغلبيـة) تعتـبر من المقدسات والمحّرمات والثوابت والنهائيات.

إن المجددين لايقولـون بمصطلـح الماركسـية اللينينيـة، وإنمـا يقولـون بالماركسية أو الفكر الماركسـي، معتـبرين أن الماركسية هـي الوعـاء الأوسـع والأشمل القادر على احتواء جميع الاجتهادات والابداعات والانجازات النظريـة

والعملية التي قامت على أساس المنهج المادي الجدلي التاريخي معتمدة على الثروة الفكرية العظيمة لماركس وأنجلس. وما اللينينية إلا واحدة منها. أي أن مصطلح الماركسية اللينينية يجب أن يستخدم استخداماً صحيحاً لا للدلالة على الماركسية وقد اكتملت على يد لينين، بل للدلالة على تيار محدد فيها، هو ليس بالضرورةأفضلها أو أكثرها صحة أ ونضجاً. وانسجاماً مع هذا الموقف الفكري واستجابة لمتطلبات البحث والتحليل العلميين يجادل أنصار التجديد في مدى «إشتراكية» النظام السوفييتي، ويخضعون للدراسة والتمحيص (دون ممالأة ومحاباة) جميع جوانب ذلك النظام بدءاً من نقطة انطلاقه أي الثورة البلشفية في روسيا عام 1917، ويتوقفون عند أسبابها وظروفها وملابساتها وحتميتها وضرورتها وطبيعتها وسيرورتها وما إلى ذلك من مسائل نظرية هامة، بقصد استخلاص العبر والدروس المفيدة للمستقبل.

إن هذه الطروحات بمجملها تفوق كثيراً وتتعدى متطلبات وتصورات وإمكانيات الأكثرية في الحزب. إن الأكثرية ترغب بتجديد وتطوير من النوع الذي نجد عليها مثالاً من خلال ماكتبته جريدة «نضال الشعب» في عددها 507بتاريخ 1995/2/20.

لقد نشرت تقريراً مطولاً عن المؤتمر الثالث للحزب الشيوعي الروسي وبرنامجه الجديد وقراراته المختلفة جاء فيه: «ويعلن البرنامج في نهايته أن علم الحزب هو العلم الأحمر وأن نشيده هو النشيد الأممي، وأن رمزه يتشكل من اتحاد رموز عمال المدن والريف والعلم والثقافة وهي المنجل والمطرقة

والكتاب». وهكذا.... إن إضافة رمز الكتاب إلى المنجل والمطرقة هو مثال نموذجي على التجديد الذي يروق لقيادة الحزب ويثير إعجابها ويلاقي قبولاً وترحيباً عند الوسطيين ! ونحن لاننفي أنّ في هذه الإضافة تجديداً له مغزاه وأهميته، لاسيما وأن رمز «المنجل والمطرقة» ظل لعقود طويلة عند الشيوعيين(ولايزال حتى الآن عند بعضهم) بمنزلة «الصليب» عند المسيحيين و«الهلال» عند المسلمين! ولكننا نرى أن هذا التجديد شكلي لايغوص في العمق ولايطال الجوهر. إن الذي يميز الحزب، أي حزب، حقاً وفعلاً، ليس رمزه ونشيده وعلمه، وإنما برنامجه وممارسته وسلوكيته ومنهجيته وعقليته وفكره وسياسته. وهذا لايلغي، طبعاً، ضرورة وجود شارات تمييز في بعض الأحيان. ولكن هذه الشارات يجب أن تكون من الوسائل التي تخدم القضية والهدف، وليست هدفاً بحد ذاته أو رمزاً مقدساً أو طقساً دينياً واجب الأداء على الدوام.ومن المفيد أن نشير إلى نسبية أي رمز كان ومحدودية قدرته التعبيرية وتأثره الكبير بالتغيرات الزمانية والمكانية. فمثلاً، نلاحظ أن الشيوعيين الروس اختاروا «الكتاب» رمزاً للعاملين في مجال العلم والثقافة، وهو بالتأكيد اختيارموفق. ولكننا نرى أنه وبالنجاح نفسه يمكن اختيار «القلم» أو«الكمبيوتر» أو غيرهما. وإذا كان «المنجل» رمزاً للفلاحين موفقاً وصائباً لأمد طويل، فإن الوضع تغّير جذرياً في الوقت الحاضر.

وننصح من يرغب في التأكد من ذلك أن يذهب إلى أية قرية سورية (حتى لايذهب بعيداً) وليحاول إحصاء عدد الفلاحين الذين يستخدمون

المنجل كأداة عمل، أو عدد الناس الذين شاهدوا منجلاً حقيقياً في حياتهم (أي ليس عن طريق الكتب والتلفزيون)!!

كما تطرقت «نضال الشعب» في تقريرها ذاك إلى الأسباب التي يراها الشيوعيون الروس موجبة لعدم طرح شعار «ياعمال العالم اتحدوا».

لاجدال في أن من حق الشيوعيين الروس وغير الروس أن يتخذوا القرارات التي تناسبهم. غير أننا نودّ التدقيق في هذه الموضوعة نظراً لوجود التباس وتشويش مزمنين فيها. إن الشعار الذي يجري التخلي عنه حالياً على نطاق واسع هو شعار «يابروليتاريي العالم اتحدوا» الذي جاء في ختام «البيان الشيوعي» لماركس وأنجلس عام 1848، وهو وارد بهذه الصيغة حرفياً في جميع اللغات اللاتينية والسلافية (كما نعلم)، وقد ترجم إلى اللغة العربية بعيد الثورة البلشفية في روسيا عام 1917على النحو التالي :«ياصعاليك العالم اتحدوا».

ثم استبدله الشيوعيون العرب بصيغته المعروفة «ياعمال العالم اتحدوا».

إننا نبغي من هذا العرض القول بأن ذاك الشعار بصيغته العربية الفصيحة والواضحة :«ياعمال العالم اتحدوا» يستحق منا أن نتمسك به ونحافظ عليه لقناعتنا بأن النضال المجدي والمفيد في ظل التطورات العالمية الجارية هو النضال ذو الطابع العالمي.

وهذا لايعود فقط إلى الثورة الهائلة في الاتصالات والمعلومات التي جعلت العالم «قرية صغيرة» بل إلى أسباب أخرى كثيرة يأتي في مقدمتها وحدة العالم

الاقتصادية الـتي أنجزهـا رأس المـال بشـكل غـير متكـافئ مسببا مآسـي وويـلات وصعوبـات لاتحصـى، يـرزح تحـت وطأتهـا، بشـكل أساسـي، الجـزء الفقـير أي «العالم الثالث» ولابد من التأكيد على ضرورة فهم هذا الشعار فهماً معـاصراً مـن جميع الجوانب، بخاصة فيما يتعلـق بمفهـوم «العـامل» الـذي غـدا في أواخـر القـرن العشـرين أوسـع وأعـم وأشمـل بكثـيرمن مفهـوم «البروليتـاري» في أواسـط القـرن التاسع عشر. والأهم من ذلك كله هو ضـرورة التعـامل مـع هـذا الشـعار تعـاملاً سياسياً، وطرحه في الزمان والمكان المناسبين، لاأن يكون كمـا في السـابق واحـداً من الشعائر والطقوس الدينية يشغل عند الشيوعيين مكانـة «البسـملة» أي » بسـم الله الرحمن الرحيم» عند المسلمين!.

ونعود للتنويه مرة أخرى أن الوصـف الـذي قدمنـاه لاصطفـاف القـوى داخل الحزب الشيوعي هو وصف تقريبـي، وفيـه قـدر مـن التبسـيط، حيـث هنـاك تشـابكات واختلاطـات مـن كـل صنـف ونـوع. كمـا أن الحـدود والفواصل بـين التيـارات والأجنحـة في حركـة مستمرة، وتبـدو أحيانـاً غـير واضحة المعالم. ولكن هناك ملاحظـة هامـة لاتخفـى علـى المطلعـين والمهتمـين وهي أن الاتجاه العام لحركة الحـزب في السـنوات الثـلاث الأخـيرة كـان نحـو اليمين بشكل واضح وصريح، بالرغم مـن أن خطـوات ايجابيـة قـد حصلـت كان آخرها، كما أشرنا، في المجلس الوطني للحزب (12-14تموز1995).

وكان لنتائج هذا المجلس أن تكون أفضل بكثير لو استمر الزخـم الـذي كان سائداً إبان المؤتمر السابع الموحد في تشرين الأول من عام 1991.

ولهذا الواقع أسبابه ومبرراته ودوافعه الموضوعية والذاتية العديدة. ويأتي في مقدمتها خيبة الأمل الكبرى والأليمة من النتائج التي تمخضت عنها البيريسترويكا في الاتحاد السوفييتي السابق، وماتبع ذلك من تراجع ونكوص وارتداد عن مبادئ وأهداف البيريسترويكا من قبل كم هائل من الشيوعيين، من أعلى الهرم الحزبي إلى أسفل قاعدته. ونسجل هنا نقطة هامة أخرى هي أن الحزب الشيوعي السوري الذي تبدو عليه حالياً سيماء محافظة، كان في بدايات البيريسترويكا من أشد المتحمسين والمؤيدين لها. والملفت للانتباه أيضاً أن «آباء البيريسترويكا» أي أكثر الشيوعيين صراخاً وتهليلاً وتصفيقاً لها قبل بضعة أعوام، يغوصون اليوم في مستنقع الوسطية، أو يتمرغون في وحول الخنادق الدفاعية لليمين الرجعي و«الأصولية الظلامية والستالينية المشينة».

وهذا يدفعنا إلى إلقاء الضوء على المواقع التي انطلق منها أعضاء الحزب الكثيرون في تأييدهم للبيريسترويكا.

برأينا أن هذه المواقع ثلاثة، هي:

أولاً

موقع القناعة بضرورتها وأهميتها وانسجامها مع الفكر الماركسي، والتأييد الصادق والمخلص لأهدافها الديمقراطية والانسانية والاشتراكية الحقة. إن أصحاب هذا الموقع بأكثريتهم الساحقة مازالوا ينتمون إليه، ومنهم يتكون جسم التيار التجديدي اليساري في الحزب.

ثانياً:

موقع التأييد المطلق، بحكم العرف والعادة، لكل مايأتي من الرفاق السوفييت أو »الرفاق الكبار» الذين هم أذكى وأعلم وأعرف الناس طراً!!.

ثالثاً:

موقع أولئك الذين ارتبطت مواقفهم من التحديد السوفييتي بهذا الشكل أو ذاك وبهذا القدر أو ذاك ارتبطت بالأزمة الداخلية المستفحلة في الحزب وبالصراع المرير والمديدعلى السلطة فيه. لقد بدأ في الحزب، منذ نهاية الستينات، نضال عنيد ودؤوب ومثابر ضد الستالينية والذيلية والجمود العقائدي وعبادة الفرد التي كان يجسدها الأمين العام السابق للحزب الأستاذ خالد بكداش المدعوم بقوة من موسكو.

وجاءت رياح التغيير من موسكو هذه المرة لتهب بما تشتهي سفينة المعارضين لخالد بكداش.وقد تبين فيما بعد أن بعض هؤلاء كان ضد شخص خالد بكداش وبعض المقربين منه، و لم يكن، من حيث المبدأ، ضد البكداشية كنهج ومفهوم وطريقة تفكير وأسلوب عمل.

ومن الجدير بالذكر أيضاً أن بعض كبار قادة الحزب كانت لديهم المقدرة والإمكانية والدوافع للسير بالحزب إلى أمام بقوة وحزم. ولكنهم تباطؤوا، وظلوا يلتفتون إلى الوراء، و لم يستجيبوا، في المحصلة، لنداء العصر على النحو المطلوب. ولعلهم خافوا من الانهيارات التي حصلت، ومن المستوى الثقافي والمعرفي المنخفض عموماً في الحزب.لذا آثروا «السلامة »

وصار ديدنهم الحفاظ على مايمكن الحفاظ عليه في الداخل عملا بالمثل الشعبي « عصفور باليد ولاعشرة على الشجرة» يضاف إلى ذلك أن التطورات والأحداث في الاتحاد السوفييتي السابق ودول أوربا الشرقية جاءت عاصفة ومزلزلة ومفاجئة بالنسبة للجميع.

وهذا ماجعل أمر استيعابها والتأقلم معها واستخلاص الدروس بسرعة منها محفوفاً بالمخاطر والصعوبات وشديد التعقيد.

بعد هذا العرض الوصفي لواقع الحال في الحزب الشيوعي السوري تبرز أسئلة عديدة ومتنوعة حول الأسباب التي أدت إلى وجود هذا الواقع وكيفية تكوينه وسبل تخطيه وتجاوزه.

للإجابة عن هذه الأسئلة لابد من الوقوف عند طبيعة الشيوعيين لمعرفة جوهرهم ومن أي معدن هم، ومن ثم محاولة اكتشاف الأسباب العميقة التي تقف وراء ارتباطهم الشديد بالاتحاد السوفييتي وتجربته ونموذجه.

الفصل الثالث

وطنية الشيوعيين وأفضالهم

عرف شعبنا الشيوعيين وطنيين مخلصين وغيورين شاركوا، طيلة السبعين سنة من عمر حزبهم، بحميّة، وتفانٍ في جميع المعارك الوطنية من أجل الاستقلال والسيادة والجلاء، وضد الاحتلال الأجنبي والمؤامرات الاستعمارية والاعتداءات الاسرائيلية ومحاولات فرض الهيمنة والاذعان على سورية ولبنان والأمة العربية، وضد الديكتاتوريات العسكرية والأنظمة الرجعية. وقيم فيهم شعبنا عالياً صفات وخصالاً حميدة كثيرة مثل الشجاعة والأمانة والمبدئية والصلابة والاستعداد للتضحية والاستقامة والنزاهة. وسيسجل لهم التاريخ أنهم زرعوا في تربة وطننا بذور أفكار إنسانية سامية عن الاشتراكية والتقدم والسلام، وأنهم طرحوا مهام نضالية عظيمة الأهمية بالنسبة لبلادنا ومستوى تطورها مثل القضاء على الاقطاع والتخلف، ومحاربة الاستغلال والتبعية والامبريالية، والدفاع عن حقوق العمال والفلاحين وعن حرية المرأة

ومساواتها مع الرجل. كما أنهم أسهموا في نشر الوعي الطبقي وتأسيس أولى النقابات العمالية والمهنية. وإذا علمنا أن الأحزاب الشيوعية في البلدان العربية كانت من أوائل الأحزاب السياسية التي أنشئت في هذه البلدان، فإننا نستطيع التأكيد بأن الشيوعيين هم من أوائل ونشطاء المساهمين في تأسيس الحياة الحزبية السياسية المعاصرة في الوطن العربي، الحياة الحزبية التي غدت في أيامنا هذه في أواخر القرن العشرين قرن التغيرات الجذرية والتطورات العاصفة في تاريخ البشرية غدت سمة أساسية وشرطاً ضرورياً للحياة السياسية الديمقراطية التي لاغنى عنها لمواصلة السير على طريق التنمية والتقدم الاجتماعي وضمان حقوق الانسان في أي بلدٍ كان.

وقد شهدت الحركة الشيوعية في بلادنا مداً وجزراً تعاقبا مرات عديدة، واستقطبت ألوفاً من المناضلين والمثقفين والمفكرين والقادة، وصمدت في وجه الهجمات الشرسة وحملات التصفية والملاحقة، ولم تستطع وأدها والقضاء عليها محاولات القوى الامبريالية والصهيونية والرجعية.

ياللمفارقة !...ياللمعضلة !....حركة بمثل هذه المواصفا ت وتضم مثل هؤلاء الأعضاء تعاني اليوم ذبولاً وانكماشاً وضموراً، وتعيش أزمات خانقة، وتقف وجهاً لوجه أمام جملة من المشاكل والمسائل والتحديات الصعبة والمعقدة والمصيرية.

وترد الأسئلة إلى الذهن متواترة متلاحقة، الواحد تلو الآخر لماذا؟ كيف؟من أين ؟ ماهي الأسباب؟ من المسؤول ؟ ماالعمل؟ الخ...الخ...

لقد وضع الشيوعيون في سورية ولبنان أنفسهم بأيديهم في وضع محرج لايحسدون عليه حيث «بالغوا، ولمرحلة ليست قصيرة، في التماثل مع النموذج الخارجي وفي الامتثال للمشرفين عليه، وقدموا من خلال الممارسة ذرائع متعددة لاتهامهم بأنهم «جالية أجنبية »في لبنان تحمل «الشماسي» في بيروت إذا أمطرت في موسكو» [4]

طبيعي أن ما ينطبق علىلبنان وبيروت ينطبق أيضاً علىسورية ودمشق. وحتى لانضع الجميع في سلة واحدة فنظلمهم، نقول إن الشيوعيين اللبنانيين قاموا إبان التحضير لمؤتمر حزبهم الثاني في العام 1968 وبعيده بمحاولة جادة لتحقيق بعض التمايز والاستقلالية عن الحزب الشيوعي السوفييتي.

أما في الحزب الشيوعي السوري فقد جرت الأمور، آنذاك، باتجاه مغاير تماماً، وبلغت حدوداً بعيدة وغريبة ونائية، ووصلت إلى مرحلة عصيبة وعصية على الفهم تحدث عنها الأستاذ الأديب محمد دكروب في الآونة الأخيرة قائلاً :«الآن لم يعد ثمة«مركز »...ولامنظرون موظفون، هناك، يخترعون النظريات حتى تتكيف أحزابنا مع متطلباتها.. ولا «علماء سوفييت/ مستشرقون » يحتكم إليهم عدد من رفاقنا في الحزب الشيوعي السوري سامحهم الله!ـ ويعطونهم حق الافتاء في ما إذا كنا نحن العرب نكون أمة عربية أم لا!!...(وقد أفتوا بأن :لا....)....وهي فضيحة فكرية بامتياز.

---

4 سعد الله مزرعاني :«الحزب الشيوعي اللبناني: مبررات وأشكال وبرنامج التغيير» الجزء الثاني مجلة «النداء» العدد 142تاريخ 1995/2/18.

ومارست تأثيرها السلبي ليس فقط في التضليل الفكري بل في تكريس الانقساما ت في الحزب الشيوعي السوري » [5]

هناك شهادة فريدة من نوعها حول هذا الموضوع، وردت هذه المرة في رواية «المرفأ البعيد» من الثلاثية الشهيرة «حكاية بحار» لكاتبنا الكبير حنا مينة، لقد كان بطل الرواية سعيد حزوم منبهراً بالمناضل الشيوعي قاسم العبد، ولكنه لم يستطع إلا أن يعبر عن دهشته لكون المناضل قاسم ونظيره المصري المتخفي بزي بحار :«كلاهما يكرهان الأجنبي، فرنسا وبريطانيا، ويحبان أجنبياً آخر، هو روسيا، فكيف تستقيم الأمور على هذا النحو ؟»(الصفحة 267).

لقد أصبح وضع الشيوعيين يشبه في بعض أوجهه وضع الأحزاب والقوى الدينية في الوقت الحاضر. كتبت الصحافية اليسارية المصرية فريدة النقاش:«.....فأنا على سبيل المثال أساند بكل قوة العمليات المسلحة التي يقوم بها كل من حزب ا لله في جنوبي لبنان، وحماس في فلسطين ضد العدو الصهيوني باعتباره كفاحاً مشروعاً للدفاع عن الوطن ضد الاحتلال ولكنني في الوقت نفسه أرفض تماماً منظومة الأفكار التي ينطلق منها كل من حزب ا لله وحماس[6]».

---

5 محمدكروب ..بعد ذلك الزلزال!... أما آن لنا أن ندرس (ماركسياً) واقع مجتمعاتنا العربية، أيها الرفاق ؟!» مجلة «الطريق » العدد 6، تشرين ثاني - كانون أول (نوفمبر ديسمبر)1994.

6 فريدة النقاش :«المثقفون المصريون والتطبيع» مجلة «النداء » العدد 147في 1995/3/25.

من الواضح أن كلام الكاتبة المصرية هذا لايعبر فقـط عـن موقـف القوى اليسارية والتقدمية والديمقراطية والعلمانية وإنمـا يعـبر إلى درجـة كبـيرة عن موقف المواطن العربي العادي الـذي يطمـح إلى حيـاة حـرة كريمـة هانئـة وهادئة وبشكل مشابه تقريباً، كان المواطن العربي العادي يقدر في الشيوعيين وطنيتهم وإخلاصهم ويحترم ثباتهم وتضحياتهم من أجل مبـادئهم وأهدافهـم، ولكنه كان في الوقت نفسه يرفض جزءاً كبيراً ومهماً من منظومتهم الفكرية، وبخاصة انسياقهم الكامل وراء النموذج السوفييتي ومحاولاتهم نسخه والتماثل معه والتطابق إلى درجة التمازج والاندماج!...

والشيئ المؤسف حقاً، أن مثل هذه المحاولات مازالت تطـل برأسـها حتـى في وقتنا الحاضر، بالرغم من كل ماجرى ويجري، وبعد كل ماحدث ويحدث. وهـا هو الأستاذ موريس صليبي يحاول وفي قضية وطنية كبرى هي قضية تحررنا وجلاء القوات الأجنبية عـن أراضينـا، يحـاول أن يعطـي دوراً هامـاً وأساسـياً ليـس فقـط للاتحاد السوفييتي كدولة وكنظام، وإنما لمندوب الاتحاد السوفييتي في مجلـس الأمـن شخصياً !!.. ففي مقالة نشرت مؤخراً في جريدة الحزب المركزية «نضال الشعب » كتب الأستاذ موريس صليبي عن الذكـرى الخمسـين للعـدوان الفرنسـي في 29 أيار عام1945 على سورية كتـب في إطـار عـرض طويـل يقـول :«أعلـن المنـدوب الفرنسي في مجلس الأمن أنه يستغرب شكوى سورية ولبنان لأن الحـرب لم تنتـه، وهو يقصد استمرار الحرب ضد اليابـان. ووافـق المنـدوب البريطـاني علـى أقـوال المندوب الفرنسي وقدّم المندوب الأمريكي مشروع قرار ينـص علـى مـايلي :«إن

مجلس الأمن يعرب عن ثقته بجلاء الجيوش الأجنبية عن سورية ولبنان بأسرع مايمكن وبقيام الدول الأربع صاحبة العلاقة بمفاوضات لتحقيق هذه الغاية دون تأخير. ويرجو هذه الدول إعلامه بنتائج المفاوضات..» وافق مندوبا فرنسا وإنكلترا على هذا المشروع، لكن مندوبي سورية ولبنان اعترضا عليه لأن المفاوضات ستستخدم لفرض شروط مقابل الجلاء، وأيد مندوب الاتحاد السوفييتي فيشنسكي الموقف السوري اللبناني، وقد م تعديلاً على المشروع الأمريكي يتضمن إلغاء الفقرة المتعلقة بالمفاوضات، فرفض مجلس الأمن بالأكثرية التعديل السوفييتي. عرض المشروع الأمريكي على التصويت فاستخدم فيشنسكي حق الفيتو ضده وأسقطه[7]»

من هذا الكلام بالذات يتضح أن مجلس الأمن لم يتخذ قراراً. وأن ذلك لم يغير مجرى الأحداث وكانت النتيجة أن انتصرنا وخرجت الجيوش الأجنبية من بلادنا، مما يعني أن القضية لم تكن متعلقة بقرار ما يتخذه مجلس الأمن الذي كان دوره ثانوياً فيها. وإذا كانت سورية ولبنان أول بلدين تحررا بعد الحرب العالمية الثانية فإن ذلك يعود إلى أن شعبيهما البطلين وضعا قضية التحررالكامل والجلاء التام على رأس جدول الأعمال، وطرحاها بقوة واصرار وعزيمة على أرض الواقع وفي المحافل الدولية وأمام الرأي العام العالمي.

علماً بأن سورية ولبنان كانتا من الناحية القانونية دولتين مستقلتين. وهما من الدول الإحدى والخمسين المؤسسة لمنظمة الأمم المتحدة في العام 1945.

---

7 موريس صليبي: «الذكرى الخمسون للعدوان الفرنسي في 29 أيار »جريدة «نضال الشعب » العدد 511 في 27أيار1995.

إن فضل الاتحاد السوفييتي الكبير في الجلاء عن سورية ولبنان وفي حرية واستقلال جميع الشعوب والبلدان المستعمرة الأخرى، إنما يكمن في تهيئته الأجواء والمناخات المناسبة دولياً لتحقيق مثل هذا الاستقلال السياسي، وذلك من خلال وبنتيجة الانتصار العظيم الذي حققه مع حلفائه في الحرب العالمية الثانية ضد دول المحور ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية واليابان العسكرية.

إن تصويت مندوب أي دولة في مجلس الأمن مرتبط بسياسة حكومته التي تعبر عن مصالح دولتها وفق فهمها، ولايتعلق أبداً بشخصية ورغبات وعواطف ذلك المندوب كائناً من كان!.

ولاأحد في العالم يقرن فيتو دولة من الدول الخمس الدائمة العضوية في مجلس الأمن باسم مندوبها هناك والذي رفع يده مصوتاً :« ضد»!أما الأستاذ موريس صليبي فيذكر اسم المندوب السوفييتي فيشنسكي الذي لم تكن سورية بالنسبة له أكثر من معلومة جغرافية على الخريطة يذكر اسمه مرتين في مقالة بمناسبة وطنية، وبطريقة تجعله ذا فضل علينا وتقربه إلى قلوبنا، لالشيء إلا لأنه أحد كبار رموز الستالينية.

إننا نريد للقارىء أن يعرف أن فيشنسكي هذا عمل مندوباً للاتحاد السوفييتي في مجلس الأمن واشتغل في حقل السياسة الخارجية في أواخر أيامه فقط وكان ذلك بمثابة مكافأة له من قبل ستالين على جهوده الكبيرة في خدمة سيده وتنفيذ أغراضه ومآربه ومراميه.

إن العمل الأساسي لفيشنسكي هو في مجال المحاكم والقضاء. لقد ظل وقتاً طويلاًيشغل منصب النائب العام أو المدعي العام للاتحاد السوفييتي.

لقد حاكم فيشنسكي شخصياً جميع ضحايا الارهاب الستاليني من قادة الحزب الشيوعي والدولة السوفييتية، ووجه لهم تهم الخيانة والعمالة والتجسس بالاستناد فقط إلى اعترافاتهم المنتزعة منهم تحت التعذيب. وطالب بإنزال عقوبة الاعدام بهم. وهي العقوبة التي كانت تنزل على الفور، وتنفذ بسرعة. وصار معلوماً [8] في الآونة الأخيرة أن فيشنسكي كان يعمل في النيابة العامة في مدينة بتروغراد العاصمة قبل ثورة اكتوبر. وعندما أصدرت الحكومة المؤقتة أمراً باعتقال لينين في صيف عام1917 وتقديمه للمحاكمة، فإن ذلك الأمر كان يحمل توقيع فيشنسكي نفسه. وبعد الثورة حاول البلاشفة الاقتصاص منه، فالتجأ إلى ستالين الذي حماه وخبأه للمهمات الصعبة لاحقاً بعد أن جعله يقدم انتقاداً ذاتياً وينتسب إلىالحزب البلشفي الحاكم.

في مؤلفه الضخم « أرخبيل غولاغ» يتحدث الكاتب الروسي الكبير الكسندر سولجينيتسين بإسهاب عن أوضاع القانون والحقوق والقضاء في العهد الستاليني في ظل إشراف وإدارة فيشنسكي. ويورد أمثلة صارخة حقيقية عن تلك الأوضاع. وقد اقتبسنا منه الكلمات التالية التي وردت في كتاب صدر بإشراف

---

8 راجع على سبيل المثال رواية دمتري فولكوغونوف الوثائقية [النصر والمأساة أو صورة سياسية ليوسف ستالين].

فيشنسكي :«نحن لانفرق بين الجريمة نفسها والنية على ارتكابها.وهنا بالضبط تكمن أفضلية القانون السوفييتي أمام القانون البرجوازي [9]»

نحن العرب نعرف ونفهم جيداً الحديث النبوي « إنما الأعمال بالنيات» ونرتاح له ونعجب به، لأنه حديث عن الآخرة حيث القاضي والحاكم العادل هو الله العالم بكل شيئ حتى بنيا تنا.أما أن تكون « الجرائم بالأعمال وبالنيات» في قانون جنائي وضعي فهذه بالفعل من أفضليات النظام الستاليني التي لايعرف طعمها إلا من ذاقها. اي والله !!

إن شعوب الاتحاد السوفييتي السابق تذكر اسم فيشنسكي مشفوعاً بالاحتقار واللعنات مع أسماء كبار مجرمي وجلادي الستالينية من أمثال بيريا وأباكوموف ويجوف وياغودا. إن المحاولات الرامية إلى جعل هذا السفاح صاحب حق وفضل في جلاء القوات الأجنبية عن سورية ولبنان ماهي إلا إهانة كبرى لدماء شهدائنا، وطعنة في صميم التاريخ النضالي لشعبنا، وخدمة مجانية لأعداء وخصوم الحزب الشيوعي السوري. إنها فضيحة سياسية بامتياز، يتحمل مسؤوليتها أصحابها والمتورطون فيها فقط، ولا أحد غيرهم!*

---

9 « من سجون إلى مؤسسات تربوية » مجموعة معهد السياسة الجنائية بإشراف فيشنسكي، إصدار دار نشر «القانون السوفييتي » م 1934 الصفحة 36 (بالروسية).

*عندما كان هذا الكتاب قيد النشر أصدرت جريدة «نضال الشعب» عدداً ممتازاً خاصاً بمناسبة العيد الذهبي للجلاء في 17 نيسان 1996.كتب في العدد موريس صليبي فأسهب في الحديث عن فيشنسكي وذكره أربع مرات!!

تبقى نقطة في هذا الفصل نود التوقف قليلاً عندها، وهي أنّ التعلق بالسوفييت والارتباط بهم والمبالغة المفرطة في التماثل معهم والامتثال لهم، أن هذه كلها من الصفات المكتسبة. أي أنها ليست صفات أصلية في الحزب، ولدت معه، وإنما اكتسبها لاحقاً بعد الانضمام إلى الأممية الثالثة (الكومنترن) وعلى أثر بسط السيطرة الستالينية على الاتحاد السوفييتي والكومنترن والتي تجلت عندنا بالبكداشية.

إن تأسيس الحزب الشيوعي في سورية ولبنان في أواخر تشرين الأول (اكتوبر) عام1924 جاء استجابة موضوعية لمتطلبات العمل الوطني والنضال الاجتماعي في سورية ولبنان، في تلك المرحلة التاريخية العاصفة والمليئة بالآمال الطموحة التي بلغ فيها الاستعداد الشعبي للنضال وللتضحية مستوى رفيعاً وعالياً جداً. إنها مرحلة الخلاص من الحكم العثماني والوقوع في براثن الاستعمارين البريطاني والفرنسي، مرحلة إعادة بناء وتكوين الدولة العربية المستقلة.

إنها مرحلة معركة ميسلون والانتفاضات والثورات الشعبية المتتالية والمتلاحقة.إن أحداثاً بحجم وجسامة وخطورة وتاريخية الأحداث التي مرت بها بلادنا آنذاك لايمكن لها إلا أن تؤدي إلى تسييس الشعب، إلا إلى دفع الألوف من أبناء الوطن وبناته إلى حلبة العمل السياسي والنضال الوطني والاجتماعي. لقدغدا مصير الوطن الشغل الشاغل للجميع على اختلاف مشاربهم الفكرية واتجاهاتهم السياسية وانتماءاتهم الطبقية والاجتماعية، كل

من موقعه ومن منظوره وحسب معرفته وثقافته وصداقاته وانطلاقاً من مصالحه... لذا كان أمراً طبيعياً أن ترى مجموعة من المثقفين والعمال الواعين أن طريق خلاص الوطن وعزته واستقلاله وسعادته هو طريق الاشتراكية والشيوعية، وأن تقوم بتأسيس الحزب الشيوعي السوري اللبناني كوسيلة لتحقيق الهدف المنشود. وإنه لأمر ذو مغزى كبير وعظيم الأهمية أن مؤسسي الحزب من الرواد الأوائل اختاروا له شعاراً جميلاً متطابقاً مع أهدافه ويعبر برشاقة وشفافية وبساطة عن جوهره ومحتواه، إنه شعار «وطن حر وشعب سعيد» الذي لايزال يحتفظ بحيويته وراهنيته.

الفصل الرابع

أسباب ارتباط الشيوعيين بالسوفييت

لدراسة ظاهرة اجتماعية مالايكفي الوقوف عند وصفها، وشرح تجلياتها، وتبيان آثارها ومؤثراتها، وتقويمها سلباً أو ايجاباً، ومن ثم رفضها أو القبول بها. إنما ينبغي الغوص إلى أعماقها واستجلاء أسبابها الجوهرية والدوافع الرئيسية لتكونها.وهذا ماسنحاول فعله في دراستنا لظاهرة تعلق الشيوعيين عندنا بالسوفييت نموذجاً ونظاماً وسياسة وحزباً، لاسيما أن هذه أصبحت من المسائل الراهنة، حيث يلح على جميع المهتمين سؤال حاد: كيف ولماذا وصلنا إلى هذا الوضع ؟

إن أسباب ارتباط الشيوعيين بالسوفييت عديدة ومتنوعة أهمها من وجهة نظرنا ستة أسباب هي

1) الميل الطبيعي لإيجاد حلفاء وأصدقاء وسند للظهر لدى الأفراد والجماعات والبلدان، وبشكل عام، لدى كل طرف أو مجموعة أطراف

تخوض صراعاً وعراكاً وحروباً، أو تتعرض للخطر والتهديد من قبل أطراف أخرى.

وشيوعيو بلادنا وجدوا في الاتحاد السوفييتي والأممية الثالثة (الكومنترن) وبعدها الحركة الشيوعية العالمية، وجدوا فيهم ليس حلفاء وأصدقاء فقط بل جيشاً أممياً جباراً من الأشقاء والأخوة تنتشر كتائبه في كافة أرجاء العالم، ويقف على أهبة الاستعداد لخوض المعركة الحاسمة للقضاء على البؤس والشقاء والاستغلال، وبناء الاشتراكية وصولاً إلى المجتمع الشيوعي: المستقبل الوضاء للبشرية جمعاء!.

2) شدة القهر الطبقي واحتدام المسألة الوطنية، لقد تعرض شعبنا لاضطهاد مزدوج ومضاعف على الصعيدين الطبقي والوطني. فمن جهة كانت الجماهيرالعريضة تعيش حياة فقر وبؤس وشقاء وتتعرض لظلم الإقطاعيين وقهر المستغلين. ومن جهة ثانية، رزحت بلادنا حوالي أربعة قرون تحت الاحتلال التركي العثماني ؟وما إن تخلصت منه حتى وقعت بين براثن المستعمرين الانكليز والفرنسيين ؟ وتلت ذلك الغزوة الصهيونية، ومن ثم الهيمنة الأمريكية. وكان من شأن هذا ايجاد جرح عميق في الكرامة الوطنية لأبناء شعبنا الطامحين إلى حياة حرة كريمة وإلى التحرر والاستقلال وبناء الدولة الوطنية والكيان القومي والوحدة العربية. ولم يكتف المستعمرون بنهب خيرات وثروات البلاد واضطهاد أبنائها، بل راحوا يعملون لإضعافها وتخريبها وضعضعتها حيث أمكنهم ذلك، داعمين في الوقت نفسه قوى القمع

والاستغلال والتخلف الداخلية وقد وجد الشيوعيون في الاتحاد السوفييتي نصيراً مناسباً ضد العدوين معاً

الداخلي المتمثل بالاقطاعيين والبرجوازيين والرجعيين، والخارجي المتمثل بالمستعمرين والغزاة الأجانب.

3) الطموح المتجذر للعدالة وروح التمرد والثورة، وهذه أدلتها وشواهدها كثيرة في تاريخنا. ونكتفي بالقول إن شعبنا جزء من أمة تضم معالمها التاريخية الصعاليك والخوارج والقرامطة والاسماعيلية وثورة الزنج وعامية الجبل وغيرها وغيرها..

وجاءت الأهداف المعلنة للثورة البلشفية والحزب الشيوعي والدولة السوفييتية، وكلها أهداف نبيلة ورائعة وجذابة، جاءت لتجد لها صدى واسعاً وتجاوباً كبيراً في أوساطنا الشعبية. وشكل ذلك دعماً وعوناً كبيرين للشيوعيين المحليين الذين كانوا يصدقون بإعجاب وإنبهار كل ما تبثه وتنشره وتقوله وسائل الاعلام و الدعاية السوفييتية، فاقتنعوا قناعة تامة بأن الاتحاد السوفييتي بلد انتفى فيه الاستغلال والاستثمار، وزال منه الجهل والتخلف والاضطهاد بكافة أشكاله، بلد يحكمه وينيه ويسعد به العمال والفلاحون والمثقفون الثوريون وحدهم. فهل هناك بلد أفضل من هذا ؟! وهل هناك أعظم من الثورة التي أرست هذا البناء ؟! وهل هناك أذكى وأعلم وأجدر بالريادة من الحزب الذي قاد تلك الثورة وبنى هذا النظام ؟!! لقد رسمت للنظام السوفييتي صورة زاهية ومشرقة وبراقة. وبالغت الدعاية كثيراً في

الحديث عن الانجازات والمكاسب والمآثر، وأخفت النواقص والتناقضات والاخفاقات، لدرجة نفي وجودها أصلاً. وهكذا انوجدت صورة وهمية توحي بأن حلم البشرية بالحرية والمساواة والسعادة قد تحقق أخيراً أو كاد وهذا هو الاتحاد السوفييتي المثال الحي على ذلك !!.

4) الإرث الإستبدادي الشرقي الضارب جذوره عميقاً في التاريخ العربي والنظام البطريركي الأبوي المرتكز إلىتشكيلة إقطاعية متخلفة، والوجود القوي للعلاقات العشائرية والقبلية. إن هذا كله يطبع شخصية المواطن العربي، ويترك بصمات واضحة على سلوكه وطريقة تفكيره، ويشكل أساساً لتعامله مع الآخرين، ويحدد إلى درجة كبيرة قبوله لهم أو رفضه إياهم. وهذي هي بالذات الأرضية التي جعلت العرب عموماً، ومن بينهم الشيوعيون، يتقبلون بسهولة ويسر شكل وهيكلية النظام السوفييتي، ولايجدون في أساليبه وممارساته شيئاً غريباً وغير مألوف. إن الكاهن الارثوذكسي الهارب من الدير والذي أصبح سيد الكريملين المطلق أي يوسف ستالين، بنى دولة أرثوذكسية دينية تختلف بالألوان والتسميات وبعض التفاصيل عن الامبراطورية الروسية وريثة وخليفة بيزنطة بكل مافيها من أبهة وعظمة وفخفخة ! لقد كانت دولة ذات بنية إقطاعية واضحة المعالم. إنها عبارة عن هرم يقف على رأسه رجل كلي القدرة والسلطة، بيده الحل والربط وإسعاد الشعب، إذا أحسن هذا الأخير الطلب وأجاد في إبداء الطاعة والولاء.

5) تغير طبيعة ونوعية العلاقات الرفاقية. في البداية، كانت علاقات شيوعيينا بالثورة الروسية والحزب البلشفي والدولة السوفييتية علاقات رفاقية

حماسية فيها الكثير من الصدق والعفوية والرومانسية الثورية. ولكن.. بعد الانقلاب الستاليني في أواسط الثلاثينات، فرضت الستالينية سيطرتها على الكومنترن وقضت على كل التيارات والاتجاهات المعارضة لها أو المختلفة معها، ومنعت الحوار والنقاش وإبداء الرأي والاجتهاد. وصار المطلوب هو فقط الالتزام الكامل والمطلق بالمركز الأممي الذي يقوده ستالين وتنفيذ قراراته وتعليماته وتوجيهاته.وصار حجر الزاوية في الأممية البروليتارية هو التأييد التام والإنسجام الكامل مع السياسة السوفييتية !!

وتحولت الكومنترن شيئاً فشيئاً إلى مؤسسة سوفييتية. وأصبحت الأحزاب الشيوعية المنضوية تحت لوائها فروعاً خارجية لهذه المؤسسة و لم يتغير الأمر بالنسبة للأحزاب في منطقنا العربية بعد حل الكومنترن في 15 أيار(مايو)عام 1943 لأن المركز الأممي بقي هو نفسه والقائد الموجه هو نفسه يقيم في الكريملين بموسكو. ورويداً رويداً تحولت قيادات الأحزاب الشيوعية وكادراتها إلى جزء من الجهاز البيروقراطي السوفييتي. وصارت لها امتيازاتها الخاصة الكبيرة. ومن لايذكر كيف كان قادة الأحزاب الشيوعية يحصلون على الأوسمة والنياشين والميداليات السوفييتية في أعياد ميلادهم اليوبيلية وفي المناسبات الهامة، يتساوون في ذلك مع المسؤولين السوفييت؟!

إن بعض هؤلاء القادة والكادرات الحزبية لم ير إلاالروائع والمآثر والمعجزات في خلال زياراته للاتحاد السوفييتي، نظراً للحفاوة البالغة والامتيازات التي كان ينعم بها ويظن أن كل المواطنين السوفييت يتمتعون بها. أما بعضهم الآخر فقد

بدأ يكتشف متأخراً أن الأمور ليست بهذه الصورة الزاهية، وأن ليس كل شيء يسير على مايرام. ولكنه لايعترف ولايقر بذلك ولايتحدث عنه علناً، إما جهلاً بالأسباب أو خوفاً من الاتهامات أو إيثاراً للسلامة أو حفاظاً على المكاسب والامتيازات وإلى ماهنالك...

6) البساطة والتبسيط وقلة الثقافة وضحالة المعرفة، لقد كان العمل الثقافي والفكري في الأحزاب الشيوعية مبنياً على أساس المحاكمة الذهنية التالية الحزب الشيوعي هو حزب الطبقة العاملة وجماهير الفلاحين، وبخاصة الفقراء منهم، وأبناء هاتين الطبقتين الواسعتين هم أناس بسطاء، بمعنى أن الرأسماليين والاقطاعيين وغيرهم من قوى الظلم والعسف والاستغلال قد منعوهم من التحصيل العلمي والوصول إلى مناهل الثقافة والمعرفة لابقائهم بدون سلاح فكري وبذلك يسهل اضطهادهم وقهرهم. هذا من جهة. ومن جهة ثانية فإن الظروف البائسة أو الصعبة التي يحياها هؤلاء العمال والفلاحون وسعيهم الدائب والدائم وراء لقمة العيش لا تترك لهم مجالاً ومتسعاً كافيين للتعلم والتثقيف. ولكن لابد لهم من سلاح فكري يتزودون به لمقارعة الأعداء الطبقيين أولاً، ولبناء حياتهم الجديدة ثانياً. ولهذا كله يجب السعي لايصال المعارف السياسية والاقتصادية والفلسفية لهم بأقصى مايمكن من السهولة والتبسيط. وكان ستالين ملك التبسيط وأبرع أستاذ فيه!

وبعد أن سادت الستالينية وأصبحت سيدة الموقف في الحركة الشيوعية العالمية، راحوا في بلادنا يترجمون «التبسيط» ويسطونه ليتلاءم مع الظروف المحلية!

وصارت المهمة الرئيسية للمثقفين الحزبيين استيعاب وصياغة وإعادة صياغة ونشر ذلك التبسيط الذي أطلق عليه اسم الماركسية اللينينية التي أصبحت تُعتنق اعتناقاً كأية عقيدة دينية، وينظر إليها باعتبارها »النظرية الوحيدة الصحيحة«!

وضمن هذه الظروف وفي إطار هذه المعطيات، قام الصرح الثقافي المعرفي في الأحزاب الشيوعية على أربعة أعمدة هي

النقل والتلقين والحفظ والاستظهار.وصار الوعي أسير منظومة فكرية منجزة، محدودة، مبسطة وساكنة فأصيب الجدل بالشلل والماركسية بالإغماء. وكما لايستطيع الطائر المحبوس في قفص حتى ولو كان ذهبياً أن يحلق بعيداً في الأجواء، كذلك لايستطيع الانسان الجالس في برج عاجي كهذا أن يتبحر في العلم ويكون ذا ثقافة واسعة ومعرفة غزيرة وإبداع خلاق !.

لقد لفتت انتباهي وأدهشتني قضية أثارها الدكتور ماهر الشريف بقوله:« والآن سأقدم فكرة سريعة عن الأرشيف السري للكومنترن، لكنني قبل ذلك أتساءل لماذا لم يبذل الشيوعيون في سورية وفي لبنان جهوداً جدية للاطلاع على الأرشيف الخاص بالحزب الشيوعي في سورية ولبنان، خصوصاً بعد أن اتخذ قرار فتح هذا الأرشيف للأحزاب المعنية في عام 1988؟ أعتقد أن الاطلاع على هذا الأرشيف ضرورة لتتبع تطور تاريخ الحزب خلال مرحلة تمتد من خريف العام 1924 إلى ربيع العام1943، علماً أن امكانية الاطلاع على هذا الأرشيف باتت أصعب الآن...[10]»

---

10 د. ماهر الشريف مداخلة في طاولة مستديرة حول الذكرى السبعين للحزب الشيوعي السوري مجلة «دراسات اشتراكية » العدد 149-150(عدد خاص) ص8-9.

إن الملاحظة الواردة هنا صحيحة والتساؤل مشروع وفي محله. ولكن مايدهشني هو الدهشة التي يبديها الدكتور ماهر الشريف من خلال تساؤله، وكأنه لايعرف الجواب الذي يعرفه الجميع. وهو أن القيادات والكوادر البيروقراطية الحزبية لم تشتهر يوماً بحبها للبحث العلمي، وولعها بالتحري والتقصي والتمحيص، وشوقها إلى الاطلاع والاستكشاف، وتوقها إلى الابداع والاستنباط!. وهذا جانب واحد. أما الجانب الآخر فهو أن هذه القيادات مشغولة حالياً بالدفاع عن الذات وعن المألوف، وبالحفاظ على مايمكن الحفاظ عليه. وهي غير متلهفة أبداً للإطلاع على الأرشيف القديم الذي فتحوه في موسكو، لأنه قد يفتح عليها أبواباً لاتعرف كيف تغلقها، وهي بغنى عنها الآن، أو أنها في أحسن الأحوال «غير فاضية» لبحثها والوقوف عندها!.

وهكذا..«..تناقصت قيمة الثقافة بمرور الزمن، خاصة بعدأن ظهرت حالات تمرد ثقافي على السياسة السائدة، التي قلنا إنها قامت على احتواء الثقافة في الايديولوجيا. في مواجهة المثقف، الذي اعتبر كائناً زئبقياً يصعب إلزامه بهوية طبقية واضحة، أنجبت »الأحزاب الطليعية » كائناً جديداً هو الكادر، قالت عنه إنه مثقف ملتزم وملتزم مثقف. الكادر كان منذ البداية بديلاً للمثقف. إنه لم يكن مثقفاً ملتزماً أو ملتزماً مثقفاً، و لم يكن أيضاً مأسماه غرامشي «المثقف العضوي» بل كان أداة تنفيذية للسياسة، تعرف كيف تقلب أي ملمح أو مكون ثقافي إلى مسبقة إيديولوجية تندرج في منظومة

مغلقة محشوة بعناصر لاعقلانية أسموها«الايديولوجيا الثورية » هذه الأداة اتسمت بصفات أهمها تخليها الطوعي عن المشاركة السياسية أو عن تأمل الشأن العام بجهودها الخاصة، بعقلها الخاص [11]

بالفعل، « إن هناك فارقاً نوعياً بين المثقف الماركسي العضوي، المتكون في لهيب المعاناة الحضارية القومية، والمنبثق من رحم الصراع الثقافي القومي وبين الكادر الحزبي، نصف المثقف، المتكون في مدرسة حزبية أجنبية، وستالينية. إن الأول، الذي هو امتداد طبيعي لحركة الفكر العربي التقدمي، ذو وعي أصيل ومتماسك ومستقل، وقادر بالتالي، على إبداع فكر ثوري مطابق للضرورة التاريخية في تجليها القومي.ولذا، فإن تكوينه وفكره يدفعانه باتجاه الطبقات الشعبية، وإلى استكناه نبضها الجمعي، وحاجاتها التاريخية، بينما الثاني المترقي من صفوف الطبقات الشعبية إلى الأعلى، الذي تحول من مجرد شغيل عادي، نصف متعلم، إلى كادر حزبي، نصف مثقف، عن طريق استذكار دروس ستالينية، مستعد، سلفاً، للايمان بكل كلمة فيها، لايمكنه أن يتحصل إلا على وعي هجين ومتجزىء وتابع، وعاجز، بالتالي، عن انتاج وعي الطبقة العاملة لنفسها، ولمهامها في الثورة العربية. وعلينا أن نتصور حال الكادر الحزبي، المنتقل من وجدان ديني شعبي ومعارف ابتدائية إلى

---

11 ميشيل كيلو شهادة في محور المثقفون العرب والمشاركة السياسية مجلة«النهج» العدد4 صيف 1995 الصفحة 117.

الماركسية.إن وعيه سيهجن الماركسية. ستغدو الماركسية عنده، بالضرورة، عقيدة دينية بسيطة...[12]»

هذي هي برأينا الأسباب التي أدت إلى تعلق الشيوعيين بالاتحاد السوفييتي حتى درجة التبعية. لانزعم أنها شاملة ومكتملة وتامة، لامن حيث العدد ولامن حيث الترتيب أو العرض.

قبل أن ننهي هذا الفصل نود أن نشير إلى أنه يوجد بين الشيوعيين السوريين من ينفي وينكر أصلاً وجود هذه التبعية، معتقداً، بسذاجة، أنه بذلك إنما يدافع عن الحزب. فالأستاذ موريس صليبي، على سبيل المثال، كتب في مذكراته التي كانت تنشرها جريدة «نضال الشعب » كتب، منوهاً إلى المؤتمر الثاني للحزب، يقول «لقد زعم سياسيون وكتاب من اتجاهات مختلفة أن حزبنا كان ينقل وينسخ ماكان يجري في الاتحاد السوفييتي، وبأن أمميته كانت تطغى على وطنيته، وبأنه اعتبر الماركسية اللينينية وكأنها تعاليم دينية... لكن محتويات الميثاق الوطني ونصوصه وكل اهتمامات الحزب وشعاراته ونضالاته تحوي الرد الكافي.فليس في الميثاق الوطني ذكر للماركسية اللينينية ولا للأممية و لم ترد فيه حتى كلمة الاشتراكية [13]»

---

12 ناهض حتر:«الماركسية العربية والحركة الشيوعية العربية عود على بدء....» مجلة «الطريق» العدد2 آذار (مارس) 1994ص79.

13 راجع « من مذكرات موريس صليبي » جريدة «نضال الشعب » العدد487 (1993/8/3)

إننا إذ نقدر للمؤتمر الثاني للحزب المنعقد على تخوم العامين 1944/1943 نتائجه الايجابية العديدة، بما فيها الميثاق الوطني، لابد أن نذكر أن كل اهتمامات الحزب وشعاراته ونضالاته تحوي الرد الكافي فعلاً، ولكن على الأستاذ موريس صليبي وليس على غيره !.

من بين الكم الهائل من الوثائق نكتفي بوثيقة تقويمية هامة تتناول مباشرة القضايا المثارة. والوثيقة هي «حول بعض جوانب الأزمة في الحزب الشيوعي السوري » التي أقرها المؤتمر السادس للحزب في اوائل العام1987، وكان الأستاذ صليبي وقتها يشغل موقعاً في أعلى الهرم الحزبي (عضواً في المكتب السياسي) تقول الوثيقة «كما أن عدم طرح شعار الاشتراكية باستمرار باعتباره شعاراً استراتيجياً أضعف الالتفاف العمالي حول الحزب.وإذا كان شعار إقامة سلطة السوفييتات شعاراً متطرفاً، وكان من الضروري سحبه، فإن هذا لايبرر أبداً إهمال شعار الاشتراكية، الذي غاب عن وثائق الحزب الأساسية خلال بعض الفترات[14]»وفي معرض الرد على الأستاذ خالد بكداش الذي انشق عن الحزب في العام 1986، وخرج بمفرده متحدياً مجموع المكتب السياسي، وعارض البيريسترويكا، واتخذ موقفاً سلبياً من قرارات المؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعي السوفييتي التي اعتبرها شأناً سوفيتياً داخلياً، الأمر الذي يخالف كل سياساته السابقة الداعية إلى الانسجام التام

---

14 وثيقة «حول بعض جوانب الأزمة في الحزب الشيوعي السوري » أقرها المؤتمر السادس للحزب المنعقد في دمشق 29-31 كانون الثاني (يناير) 1987 الصفحة 20-21.

والتطابق الكامل مع السياسة السوفييتية، في معرض الرد عليه ولومه وتقريعه جاء في الوثيقة :«وهكذا تصبح تجارب الاتحاد السوفييتي، التي تشكل، في أي من جوانبها، نموذجاً للتطبيق الماركسي اللينيني، وتأخذ صفة النموذج، بالنسبة للحركة الثورية والشيوعية العالمية، شؤوناً داخلية خاصة، وهكذا تحجب الروح التجديدية الابداعية التي طرحها هذا المؤتمر....[15]»

وإذا كان موقف الحزب هذا من السوفييت خاطئاً، بحد ذاته، فإن الوثيقة صادقة وتقول الحقيقة. وهي أن الحزب الشيوعي السوري أيام خالد بكداش وبعده، معه وبدونه يرى أن تجارب الاتحاد السوفييتي تشكل في أي من جوانبها، نموذجاً للتطبيق الماركسي اللينيني يحتذي به الثوريون والشيوعيون في العالم، فأين هذا مما «يتذكره» الأستاذ موريس صليبي وتنشره جريدة الحزب المركزية «نضال الشعب»؟! ومن الذي يشوه تاريخ الحزب ويتجنى عليه؟!

ومع قناعتنا بأن المستقبل سيحكم بالعدل على الشيوعيين ونضالاتهم ودورهم في حياة بلادنا، وأن شعبنا النبيل لن ينخسهم حقهم، فإننا نؤكد على موضوعة هامة،وهي أن الدفاع عن الحزب وتاريخه لايكون بإخفاء الحقائق أو اجتزائها، ولايكون بتزيين الوقائع وتزويق الأحداث،و لابالتطبيل والتزمير والمدائح العصماء، مهما أطنب المدّاحون. فالتاريخ لايمكن تحسينه ولاتصحيحه، لأنه وقع وانتهى!

---

15 المصدر السابق الصفحة 46.

إن الاعتزاز بالحزب وتاريخه شعورمشروع. وهو فضيلة، لاتكتمل إلا بقبول هذا التاريخ كما هو، كاملاً، دون زيادة أو نقصان، مع الاستعداد التام لتحمل المسؤولية عنه بشجاعة وإقدام. إذ أين الشجاعة وأين الصعوبة في الإنتساب إلى تاريخ مشرق ومضيء مليء بالمآثر والانتصارات، بخاصة إذا كانت تلك المآثر والانجازات قد جاءت نتيجة لتضحيات ونضالات ومعاناة أناس غيرك رجالاًونساءً وأطفالاً ؟!

عندما قرأت قول الأستاذ أنسي الحاج :«وكلما انتفخ الاستعراض انحسرت رقعة الصدق والجدية [16]» تذكرت بعض الكتابات الاستعراضية المنفوخة عن تاريخ الحزب الشيوعي السوري. فهذا يعلن أنه ينظر إلى تاريخ الحزب برأس شامخ وذاك بجبهة مرفوعة وآخر بقامة منتصبة والى ماهنالك من عنتريات لاتكلف أصحابها شيئاً !. ولعل أحداً لايجادل في أن كل تلك الوضعيات لاتكفي للنظر إلى الماضي، إذ لابد من العقل السليم والعينين المبصرتين المفتحتين!.

وعندما ينتفخ الاستعراض في أوقات التراجع والانكسار فإنه يدفع إلى الاحباط واليأس واللامبالاة، مما يؤدي إلى الهزيمة ويقود إلى الكارثة. إن جل مانخشاه على الأحزاب الشيوعية العربية أن تطالها عدوى الأمراض والأوبئة

16 أنسي الحاج :«لاتتأخر عند أحد...» مجلة «الناقد » العدد 80 شباط (فبراير) 1995 الصفحة 5.

التي أصيبت بها الأنظمة والحكومات العربية، «والحكومات العربية ورثت عن السلطنة العثمانية ماكانت تفعله في الحرب العالمية الأولى إثر كل كارثة تحل بجيوشها واستسلام إحدى قلاعها. فقد كانت تحتفل بالنصر ! بالطبل والأهازيج[17]»

17 مصطفى إياد الأصغري :«مفاجأ» مصنعة جداً » مجلة «الناقد» العدد 72 حزيران (يونيو) 1994 الصفحة81.

الفصل الخامس

تجاعيد القديم

وقع انهيار الاتحاد السوفييتي وسقوط الأنظمة الموالية له في أوربا الشرقية وقوع الصاعقة على رؤوس الشيوعيين في العالم الثالث عموماً، وكان ذلك مصيبة كبرى حلت بهم. لذا ساد ولايزال يسود شعور بالفاجعة وإحساس بالخسارة الفادحة والمصاب الجلل. لقد خسروا، دفعة واحدة، الدعم المعنوي والتأييد السياسي والمساندة الاعلامية والتوجيه الفكري والثقافي، كما خسروا

أيضاً المعونات المادية والمنح الدراسية ودعوات الزيارة والاستشفاء والاستجمام وغيرها وغيرها.

بكلمة أخرى، يطغى على شيوعيي العالم الثالث شعور بأن السلطة في الاتحاد السوفييتي وبلدان أوربا الشرقية كانت بيدهم، وأنهم فقدوا هذه السلطة وضاعت منهم! وكحال كل من يفقد السلطة، يحاولون بكل الوسائل

وشتى السبل تبييض صفحة سلطتهم القديمة وتبرير ممارساتها وإظهار محاسنها، وفي الوقت نفسه، يحاربون بشدة السلطة الجديدة التي أزاحتهم وحلت محلهم، ويتلقطون أخطاءها وسقطاتها وعثراتها، ويجهدون لتسويد صفحتها وتشويه صورتها (الأوضاع السيئة في روسيا وبقية الجمهوريات السوفييتية السابقة تقدم، حالياً، مادة غنية لفعل ذلك بدون جهود كبيرة !) وتتعقد المسألة أكثر بالنسبة للشيوعيين في العالم الثالث ، على وجه الخصوص لأن السلطة التي فقدوها لم تكن في أوطانهم، إنما في أوطان أخرى، في بلدان أجنبية. فبعد أن كانوا يعيشون في غربة عن شعوبهم بسبب اعتناقهم لأفكار ونظريات واعتمادهم لنماذج ومشروعات فصلت ووضعت لمقاسات غير مقاساتهم ولمناخات غير مناخاتهم، وقعوا في غربة ثانية، هذه المرة عن شعوب الاتحاد السوفييتي السابق ودول أوربا الشرقية. فهم لم يستطيعوا، وحتى الآن لايستطيعون، فهم الدوافع والمبررات التي حدت بتلك الشعوب للتخلص من حكم الأحزاب الشيوعية. ولايجدون، في الغالب، تفسيراً لما جرى إلا في كون تلك الشعوب قد كفرت بالنعمة، أو وقعت ضحية لمؤامرة امبريالية صهيونية رجعية رهيبة، أو في أحسن الأحوال، تعرضت لعملية غش وخداع فظيعة جعلتها تتخلى عن مكاسبها وتزوغ عن مصالحها ! وتحت وطأة هذا «الفهم » وهذه «التفسيرات » يجد بعض الشيوعيين المتعصبين وأمثالهم من فصائل حركة التحرر، يجدون صعوبة في إخفاء مشاعر الشماتة والتشفي لما حل ويحل بشعوب الاتحاد السوفييتي السابق وبلدان أوربا الشرقية

من مصائب وأهوال وكوارث، بما فيها تلك التي تجلبها الطبيعة! ويبدو أحياناً أن نشوب حرب أهلية في روسيا هو أمل عزيز على قلوب هؤلاء الناس، يسعون إليه ويتمنون حصوله ويستعجلونه! وتظل الموضوعية غائبة تماماً عند تناول الأوضاع في روسيا. ففي السابق كان الرسم يتم بلون واحد هو الأبيض، والحديث يجري عن النجاحات والانتصارات فقط. أما الآن فيجري العكس. فالرسم باللون الأسود فقط، والحديث يقتصر على الاخفاقات والهزائم والجرائم.

إن الغربة المزدوجة التي أشرنا إليها تقوض مواقع الشيوعيين وكل من يعلن تبنيه للماركسية اللنينية في بلاد المشرق العربي، وتضعف مواقفهم، وتعرقل عملية التجديد لديهم. لأنها تعطل، أساساً، آليات التحليل والتركيب والاستنتاج والبحث العلمي عندهم. فهم ربطوا أنفسهم بالنظام السوفييتي طواعية وعن طيب خاطر. وقد انهار ذلك النظام دون أن يكون لهم أي دور أو تأثير. وراحت الأحداث تجري متسارعة، عاصفة، مزلزلة، بدونهم وبالرغم منهم. أي، لم يكونوا فاعلين في الأحداث، بل منفعلين بها وفيها، يركضون وراءها لاهثين، واقتصر دورهم على ايجاد التفسيرات وخلق المبررات في إطار المنظومة الفكرية القديمة نفسها، وبخطاب سياسي عفى عليه الزمن.

وأصبح القيد الخارجي الذي قيد شيوعيو بلادنا أنفسهم به، أصبح قيداً داخلياً يتجلى في عقلية سائدة، وطريقة تفكير معتمدة، وأسلوب عمل

محدد، وأدوات تحليل ثابة، ونهج في الممارسة والتطبيق مقولب ومشدود إلى الماضي.

إن تجاعيد القديم في الحزب الشيوعي السوري تبدو للعيان بوضوح من خلال الأقوال والأفعال والممارسات والتصرفات والكتابات والنقاشات والأحاديث التي تجري في الحزب سواء بشكل رسمي أو غير رسمي، عن طريق الأفراد أو الهيئات. وينعكس ذلك بجلاء على صفحات جريدة »نضال الشعب» التي تخضع لاشراف شديد ومباشر من قبل قيادة الحزب، الأمر الذي يجعلها بحق لسان حال اللجنة المركزية للحزب.

إذا تابعنا الأعداد الأخيرة من الجريدة الصادرة في العامين السابقين نجد أن المفاهيم العامة القديمة مازالت على حالها تقريباً، والخطاب السياسي القديم هو هو مؤدلج وطبقوي ومتحزب ومنغلق ومبسط، يرسم بلونين فقط هما الأبيض والأسود، ويرى في كل حدث وخلف كل ظاهرة سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية لاتروق له، يرى مؤامرة امبريالية صهيونية رجعية تقودها الولايات المتحدة الأميركية، ويقسم الناس إلى نوعين فقط عدو أو صديق.

نشرت جريدة «نضال الشعب» في عددها (495) بتاريخ 12 أيار 1994 مقالة بعنوان « التاسع من أيار عيد النصر على الفاشية» وقعها كاتبها بالحرفين الأولين من اسمه م.ص. إن هذه المقالة مكتوبة بروحية وعقلية وطريقة تجعل القارىء يشعر بأنها قطعة نثرية خرجت للتو من ثلاجات الحرب الباردة في أيام عزها. فهي لاتعترف إلا بدور الاتحاد السوفييتي والجيش

الأحمر، ولاتقر للدول الغربية بأي فضل، بل تحاول بإشارة عابرة الحط من قدر الحلفاء والتقليل من أهمية الجبهة الغربية.و لم تشر الجريدة بعدها من قريب أو بعيد إلى الذكرى الخمسين (اليوبيل الذهبي) لفتح الجبهة الثانية بإنزال الحلفاء في النور ماندي في غرب فرنسا في 6 حزيران من العام 1944. هذه الذكرى التي احتفل بها الغربيون على نطاق واسع جداً، وأقاموا لها مهرجانات واحتفالات وعروضاً ضخمة شكلت مادة غنية للإذاعات المرئية والمسموعة والإعلام المكتوب في شتى أنحاء العالم، وتابعها أياماً عديدة مئات الملايين من البشر. والمعروف أن للجبهة الغربية الثانية دورها الهام في إنهاء الحرب العالمية الثانية والنصر على النازية والفاشية. صحيح، أنه دور لايرقى إلى دور الجبهة الأولى (الشرقية)، كما أن التضحيات التي قدمتها أميركا وبريطانيا وفرنسا لاتضاهي تضحيات شعوب الاتحاد السوفييتي السابق، ولكن هذا يجب ألا ينسينا إذا أردنا أن نكون منصفين وموضوعيين وانسانيين أن أميركا وبريطانيا وفرنسا (المقاومة) كانت حليفة للاتحاد السوفييتي، وأن شعوب هذه البلدان عانت من النازية، وحاربت وقاتلت وضحت، وأنها قدمت مئات الألوف من القتلى وعدداً أكبر من الجرحى... لقد كان ذلك درساً مفيداً ودليلاً رائعاً على عظمة الجنس البشري. فالبشرية توحدت عندما شعرت بخطر داهم وحقيقي يتهددها. وتحالفت دول ذات أنظمة مختلفة من حيث التوجه والسياسة والأهداف لردع العدوان وإقامة السلام. ثم شكلت بعد النصر آلية لصيانة السلام العالمي تمثلت في هيئة الأمم المتحدة.

لقد وقعت «نضال الشعب » في المطب نفسه الذي وقعت فيه الدعاية الغربية التي تعمد إلى طمس دور الاتحاد السوفييتي والجيش الأحمر ومقاومة شعوب دول أوربا الشرقية. ويتابع كاتب المقالة المذكورة عرض آرائه وتحليلاته واستنتاجاته فيما يخص المتغيرات العالمية الأخيرة، ويقدم لنا، بكل جدية، طروحات مثل «.....وخصصت الامبريالية المليارات لأعمال التجسس والتخريب في البلدان الاشتراكية، مما دفع إلى التضييق على الديمقراطية في هذه البلدان، وشوه نظام الديمقراطية الشعبية، وأساء إلى النموذج الذي سار عليه بناء الاشتراكية فيها وزاد من التناقضات فيه»

لاحظوا الحذاقة والبراعة !! فما جرى في البلدان الاشتراكية هو « تضييق على الديمقراطية » ! إن إعدام ملايين الناس، وسجن وتشريد عشرات الملايين وإبادة طبقات وفئات وشرائح اجتماعية مختلفة، وتهجير شعوب بكاملها من مواطنها الأصلية، وفرض الرأي الواحد والفكر الواحد والحزب الواحد واللون الواحد والشكل الواحدو... إن كل هذا هو مجرد «تضييق على الديمقراطية » كما يرى السيد م.ص. ليس هذا فحسب، بل الأهم من ذلك إنه يرجع السبب في «التضييق » إلى الامبريالية ومؤامراتها. فلو أن الامبرياليين خصصوا المليارات للإعمار والبناء في البلدان الاشتراكية بدلاً من تخصيصها لأعمال التجسس والتخريب، ولو أنهم أرسلوا المساعدات الاقتصادية والغذائية والتقنية والفنية لها لما اضطرت أبداً للتضييق على الديمقراطية، ولما تشوه نظام الديمقراطية الشعبية فيها، ولأثبتت الاشتراكية

تفوقها الكامل وأفضليتها التامة على الرأسمالية ! كما أن الكاتب لايشرح لنا لماذا يكون التصدي للمؤامرات الامبريالية بالتضييق على الديمقراطية، وليس بتوسيعها والمزيد منها؟!.

ومن الجدير بالذكر أنني كتبت رداً على مقالة م.ص المذكورة وأرسلته إلى هيئة تحرير »نضال الشعب « فلم تنشره ! ولكن بعد عام، وبمناسبة الذكرى الخمسين للنصر على النازية، نشرت الجريدة في عددها (510) الصادر في4 أيار 1995 مقالة للأستاذ دانيال نعمة تناول فيه الحرب العالمية الثانية ونتائجها بمرونة وموضوعية.

وتسعى الدعاية الحزبية في السنوات الأخيرة جاهدة لزرع الأمل في النفوس واستنهاض الهمم. لذلك تتحدث بكثرة وإطناب ومباهاة وعنجهية عن انجازات وانتصارات كبيرة تحققها القوى التقدمية والشيوعية واليسارية في مختلف البلدان والقارات، وعن إخفاقات وهزائم للقوى الرأسمالية والرجعية.

وتطالعنا على صفحات جريدة «نضال الشعب» عناوين مثل

- البابا يقتنع بشراسة الرأسمالية وعدالة الاشتراكية

(العدد 490 في 1993/11/15)

- يوم أسود للرأسمالية الليبرالية في 3 دول
- نجاحات كبرى للشيوعيين وحلفائهم في ايطاليا وفنزويلا وألمانيا
- تفاقم الأزمة الاقتصادية في البلدان الرأسمالية المتطورة

(العدد491في15 /1993/12)

- نصف سكان بوتسدام يؤيدون الشيوعيين

- انعطاف نحو اليسار في البرتغال.

- عودة الشيوعيين إلى برلمان النروج.

(العدد492في 1994/1/20)

- تقدم ملموس للحزبين الاشتراكي والشيوعي (في فرنسا)

(العدد494في 1994/4/17)

- فوز الحزب الاشتراكي المعارض في انتخابات المجر

- حزب المحافظين يخسر مواقعه (في بريطانيا)

(العدد 495في 1994/5/12)

- سقوط حكومة اليمين في السويد وتقدم للاشتراكيين والشيوعيين

- فشل تكتل الأحزاب اليمينية في الدانمارك.

- صناديق الاقتراع تطرد اليمين الرجعي من السلطةفي سيريلانكا

(العدد501في 1994/10/8)

- انتخابات محلية في ايطاليا الشيوعيون في المقدمة

(العدد504في 1994/12/17)

- فوز ساحق لتحالف اليسار البلغاري

(العدد 505 في 1994/12/29)

- هزيمة انتخابية جديدة لليمين وانتصار لليسار(في سلوفينيا)

(العدد506في 1995/1/25)

ـ فوز كاسح لليسار، والشيوعيون في المقدمة (نتائج الانتخابات الايطالية)

(العدد 511في 1995/5/27)

ـ الجماهير البلغارية تحيي جيفكوف

ـ توسع نشاط الأحزاب الشيوعية في الجمهوريات المستقلة.

ـ أصوات الشيوعيين الأسبان تزداد 43 بالمئة.

ـ تقدم اليسار في الانتخابات البلدية الفرنسية

(العدد512في 1995/6/17)

ـ حنين إلى ألمانيا الديمقراطية

(العدد 515في 1995/8/23)

إذن، الدنيا بألف خير !ولاداعي للقنوط واليأس والتشاؤم. ولكن الوقائع تشير إلى أن جريدة »نضال الشعب» لاتحصل على النتائج المرجوة، بل أنها تحصد أحياناً نتائج عكسية، منها مايمس مباشرة الجريدة نفسها، حيث يضعف تأثيرها ويتقلص توزيعها. والحصيلة، أن الحزب لايجني فوائد من دعايته.ويعود ذلك إلى عوامل وأسباب عديدة ومتنوعة نذكر منها

أولاً:

إن الدعاية تلك تطفح بالمبالغة والمغالاة، وتجنح إلى الاستعراض والمباهاة، وتشكو من التناقضات. وهذه كلها من الأمور التي تؤثر سلباً على المصداقية.

فالمهتمون بالسياسة في بلادنا، ومن بينهم قراء «نضال الشعب» أصبحوا يدركون جيداً أن النجاحات الانتخابية لليسار في بلدان الديمقراطية البرجوازية هي جزء من اللعبة الديمقراطية المتعارف عليها وحلقة من حلقات التداول السلمي للسلطة في إطار القانون والأنظمة المرعية. وليس لها تلك الأبعاد الثورية الجذرية التي انغرست في عقولنا. فهي لاتعني بأي حال قطع التشكيلة الرأسمالية ولا البدء «ببناء الاشتراكية».

إنها من الأمور الاجرائية العادية، حيث ستعاد الكرة بعد عدة سنين وتجري انتخابات جديدة. فإذا كان الشعب راضياً عن أداء اليسار فإنه سيفوز مرة أخرى، وإلا فإنه سينتقل إلى صفوف المعارضة، وهكذا... كما ويدرك المهتمون بالسياسة أيضاً أن دخول نائب شيوعي إلى برلمان أحد البلدان وحصول حزب شيوعي ما على بضعة آلاف من الأصوات زيادة عن الانتخابات السابقة هي من القضايا المحلية المحدودة وليست مؤشراً ولادليلاً على اتجاهات التطور العالمي. كما يعرف الجميع أن جيفكوف ماكان لولا البيريسترويكا ليترك الرئاسة في بلغاريا حتى الآن وهو في الرابعة والثمانين من العمر، وأن «نضال الشعب» ماكانت لتتفوه بكلمة احتجاج واحدة على ذلك، وأن الأحكام القضائية التي صدرت بحق جيفكوف وأضرابه وأمثاله كانت في غاية التسامح، وماهي إلا إجراء شكلي بقصد توجيه إدانة رمزية للنظام الديكتاتوري السابق، إدانة بدمغة القانون.

ثانياً

إن لغة التفاؤل والانتصارات تلك لاتنسجم بتاتاً مع الحديث عن الزمن الرديء، زمن التراجع والانكسار والهزائم، وتتناقض تماماً مع مظاهر الحزن والأسى والتفجع ومع المناحة المستمرة عند الشيوعيين والقريبين منهم منذ أربعة أعوام على الاتحاد السوفييتي والأنظمة الشمولية الأخرى في أوربا الشرقية، واعتبار ذلك كارثة الكوارث ومصيبة المصائب !

إن المنطق السليم يستنتج أن نجاح القوى اليسارية في دول أوربا الشرقية أو الغربية، والانتصار العظيم الذي حققه شعب جنوب أفريقيا، والانجازات الأخرى في أصقاع العالم المختلفة ماهي إلا دليل هام على أن الحياة مستمرة والتطور جار والأفق واسع والامكانات مفتوحة...

هكذا كان سابقاً، وهكذا سيظل لاحقاً ! والتاريخ لايصنع بذلك أية عجائب. إن الشرط الضروري لإحراز التقدم وتحقيق النجاحات ليس وجود هذه الدول أو تلك، أو هذا النظام أو ذاك، إنما هو التفكير السليم والسياسة الصحيحة والعمل الدؤوب والنضال المتواصل. ولعل هذا أحد أهم الدروس المستقاة من تجربة القوى اليسارية الصديقة ونجاحاتها الجديدة، تلك النجاحات التي من شأنها زيادة الأمل والثقة بالنفس لدينا.

ثالثاً:

إن إخفاق جريدة «نضال الشعب » والدعاية الحزبية، عموماً، في تحقيق نتائج إيجابية ملموسة يعود بالأساس من وجهة نظرنا إلى أنها لاتزرع أملاً مستقبلياً وإنما تزرع أملاً ماضوياً، إذا صح التعبير بمعنى أن الدعاية الحزبية لاتستخلص الاستنتاجات اللازمة والمنطقية بحيث تتم الدعوة إلى تجاوز ماقد مضى وتخطي ماهو قائم والانطلاق نحو آفاق المستقبل بخطط ومشاريع وبرامج وطرق وأساليب جديدة تلائم المتغيرات الدولية وتستجيب للطموحات والتطلعات الشعبية،وإنما تقوم بدلاً من ذلك بالحديث عن المكاسب والانتصارا ت لتؤكد أن كل شيء لابد عائد إلى سابق عهده، وأنه بعد أن ذهبت السكرة وجاءت الفكرة أدركت شعوب الاتحاد السوفييتي السابق ودول أوربا الشرقية أنها أخطأت ووقعت ضحية للغش والخداع والمؤامرات، ولذلك قررت العودة إلى الوضع الصحيح، أي الوضع السابق ! وأن كل شعوب العالم الأخرى أدركت أيضاً أن ظهرها انكشف وفقدت الكثير بفقدان الاتحاد السوفييتي لذا تجد من مصلحتها استعادته.

ويبدو واضحاً أن الدعاية الحزبية تقرأ الوقائع والأحداث قراءة ذاتية تنسجم مع طموحاتها وأمانيها الخاصة، لذا تروج لـ«العودة » و«الاعادة» و«الاستعادة» وكلها كلمات تشير إلى السير باتجاه محدد: إلى الوراء نحو الماضي ! وما من شك في أن البيروقراطية الحزبية سعياً منها للهروب من استحقاق التجديد والتغيير تقوم بزرع الآمال والأوهام حول عودة الاتحاد

السوفييتي والحزب الشيوعي الروسي إلى السلطة. نود في هـذا المجـال التذكـير بقـول البـاحث المغربـي د. عبـد الإلـه بلقزيـز :«...انتهـى الاتحـاد السـوفييتي وانصرفت معه حقبة كاملة بمعانيها ورموزها. ولكن، من يؤمن بالاتحاد، فـإن الاتحاد مات، ومن يؤمن بالفكرة التي من أجلها قام، فهي حية لاتموت[18]»

رابعاً:

تظهـر بـين الفينـة والأخـرى تناقضـات ومفارقـات تثـير الدهشـة والاستغراب. ففي عددهـا ذي الرقـم 496(1994/6/19) نشـرت «نضـال الشعب» على صفحتها الأخيرة نعوة حميمة لايريك هونيكر الرئيس السابق لألمانيا الشـرقية السـابقة. واختتمـت النعـي بـالقول :«وتعلـن جماهـير واسـعة ومتزايدة من ألمانيـا الشـرقية عـن أنهـا خسـرت أهـم مكتسـباتها الاجتماعيـة والاقتصادية بعد توحيد ألمانيا،وتدهورت الأوضاع المعاشية لأكثرية السكان بنسب كبيرة، بينمـا زاد عـدد العـاطلين على المليـون والنصـف »وخصصـت الجريدة الصفحة الثامنة من العدد نفسـه بكاملهـا لنشـر موضوعـات سياسـية للحزب الشيوعي الروسي وأخبار عنه، في إشارة دعم وتأييد واضحة للحزب المذكور وموضوعاته التي يتصدرها شعار «إعادة الاتحاد» المكتوب بالمانشـيت العريض في أعلى الصفحـة. وهكـذا نجـد أن المشـرفين علـى جريـدة «نضـال الشعب » يعتبرون واقعيـاً ومنطقيـاً جـداً توحيـد أرمينيـا وأذربيجـان، وربـط

---

18 د. عبد الإله بلقزيز:« البيريسترويكا: سيرة وهـم شـخصي » مجلة «الطريـق» العـددان 2و3 آذار حزيران /مارس يونيو 1995.

روسيا باستونيا، ودمج أوزبكستان بأوكرانيا... أما توحيد ألمانيا فإنه كارثة ومصيبة. ياللشعب الألماني المسكين، لقد خربت دياره بتوحيد بلاده!! وحتى هذا التوحيد مشكوك فيه من قبل جريدة «نضال الشعب » وبعض الصحف العربية الأخرى المشابهة، لذلك تستخدم كما في العدد 516(1995/9/17) تعبير «إلحاق ألمانيا الديمقراطية بألمانيا الاتحادية »!!

إن القاصي والداني يعرف أن ألمانيا توحدت بإرادة شعبها الحرة الجماعية. لقد شاهد الناس أجمعين،بتأثر وتعاطف بالغين، شاهدوا على شاشات التلفزيون، اللحظات التاريخية التي تمت فيها إعادة توحيد ألمانيا، حيث كانت جموع الشعب الألماني تندفع جبارة هدارة تغمرها مشاعر البهجة والسعادة والسرور وتغسل مآقيها دموع الفرح.

إن القول بـ«إلحاق ألمانيا الديمقراطية بألمانيا الإتحادية » هو محض كذب وافتراء وتضليل متعمد. إن النظرة الشوهاء لاتصدر إلا عن أناس أعمى الحقد بصرهم وبصيرتهم.

أما كيف يبدو الوضع، في الواقع، في ألمانيا، وبخاصة في جزئها الشرقي، فإن نتائج الانتخابات البرلمانية التي جرت في 16 تشرين الأول (أكتوبر) عام1994 تقدم صورة واضحة عنه. وطبيعي أن يتركز الاهتمام على النتائج التي حصل عليها حزب الاشتراكية الديمقراطية، الحزب البديل عن الحزب الاشتراكي الألماني الموحد (الشيوعي الحاكم سابقاً في ألمانيا الشرقية). لقد «انصبت عداوة كافة الأحزاب الأخرى على حزب الاشتراكية الديمقراطية، ومن المجدي في هذا المجال

التنويه بالنجاح الذي أحرزه هذا الحزب الساعي إلى التحرر من عبء الماضي والتحول إلى قوة يسارية اشتراكية حديثة. وعلى الرغم من حصول هذا الحزب على نسبة 1٪ من الأصوات في الغرب فإنه أحرز في الشرق 19.8٪ وهذه النسبة هي أعلى ماحققه حتى الآن من نجاح.إلا أن هذا لايساوي سوى 4.4٪ من الأصوات في مجمل أنحاء الجمهورية» [19]

إن هذه النتائج تشكل نجاحاً أكيداً، باعثاً على الارتياح، لهذا الحزب الجديد والمتجدد الذي يعمل في ظروف صعبة ومعقدة. ولكن، إذا كانت الأصوات التي نالها في الشرق هي أصوات المتضررين من الوحدة والذين يحنون إلى ألمانيا الديمقراطية كما يقرر أكثر المراقبين فإن هذه نقطة ليست في صالح ألمانيا الشرقية ونظامها «الاشتراكي»السابق الذي يحن إليه خمس الناخبين فقط، بينما تجاوزه أربعة أخماسهم ووضعوه خلف ظهرهم. وعلى صحافة الماركسيين اللينينيين العرب أن تكون أكثر تواضعاً وأقل تهليلاً، لأن الخمس أصغر من الأربعة أخماس (هذه المعلومة الرياضية نقدمها مجاناً، خدمة لوجه الله)!!.

خامساً:

سنتوقف عند النجاحات الإنتخابية الهامة التي أحرزتها الأحزاب الاشتراكية الجديدة التي نشأت على أنقاض الأحزاب الشيوعية الحاكمة سابقاً

---

19 الدكتور ديتمار فيتش :«الانتخابات في ألمانيا واليساريون الاشتراكيون » مجلة «النهج»العدد 3- ربيع 1995.

في دول أوربا الشرقية، والتي أوصلت هذه الأحزاب إلى سدة السلطة في بعض هذه الدول مثل بولونيا واستونيا والمجر وبلغاريا.

إن هذه الوقفة ضرورية لأن القوى اليمينية المحافظة في الأحزاب الماركسية اللينينية العربية تقوم بعملية تضليل متعمدةلتجيير نتائج تلك الانتخابات لصالحها، وذلك من خلال التركيز على »عودة الشيوعيين السابقين إلى الحكم» ومن خلال المحاولات المتكررة لتصوير ماجرى وكأنه حنين من شعوب أوربا الشرقية إلى الماضي وإلى حكم الشيوعيين ورغبة في العودة إلى الأنظمة »الاشتراكية » السابقة.

مما لاشك فيه أن الأسباب الحقيقية التي دفعت بشعوب البلدان المذكورة إلى التصويت للاشتراكيين إنما تعود إلى فشل الأحزاب البرجوازية اليمينية في تحقيق انتعاش اقتصادي، وخيبة الأمل من الرأسمالية، وزيف وخداع الوعود بالمساعدات الخارجية الغربية، وانخفاض مستوى المعيشة لشرائح واسعة من السكان، وازدياد البطالة والمديونية والتضخم، والأعمال الانتقامية والمضايقات وغيرها. ولكن.. هذا جزء من الحقيقة، وليس الحقيقة كلها.

أما الجزء الآخر الذي ينبغي قوله إذا كنا لانريد أن نخدع أنفسنا والآخرين فيتجلى فيما يلي:

1ـ لقد جاء الاشتراكيون، أو كما يسمونهم «الشيوعيون السابقون» إلى السلطة هذه المرة نتيجة الاحتكام إلى صناديق الاقتراع. مما يعني أن القوى التي خلفت الشيوعيين في الحكم هي قوى ديمقراطية.في حين أن الشيوعيين أيام حكمهم الغابر لم يكونوا ديمقراطيين.

لقد ظلوا طيلة أكثر من أربعين سنة يجرون انتخابات صورية يفوزون هم وحدهم فيها وبالاجماع ! علماً بأن تسليمهم السلطة سلمياً يدخل في رصيد ايجابياتهم العديدة وكان له كبير الأثر في إزالة الاحتقان المجتمعي، وسهل السير على طريق الديمقراطية،التي بدأت الأحزاب الجديدة في إتقانها والتعامل بها ومن خلالها.

2ـ لقد أوصلت شعوب تلك البلدان الاشتراكيين إلى السلطة بمحض إرادتها وبملء حريتها، معبرة عن آمالها وطموحاتها الانية والمستقبلية القريبة، مثبتة بذلك إدراكها لمصالحها ومقدرتها على إدارة شؤونها الخاصة، وعدم حاجتها إلى أوامر وإملاءات خارجية أو دبابات سوفييتية، كما جرى في المجر عام 1956.

3ـ إن الاشتراكيين الحاليين شيوعيون سابقون. ولكنهم ليسوا الشيوعيين السابقين.إنهم جزء منهم، ويختلفون عنهم جذرياً« بل هم ليسوا شيوعيين على الاطلاق » كما قال معلق إذاعة مونت كارلو معقباً على فوز اليسار في بولونيا. لقد أحدث هؤلاء تغييراً كبيراً وجوهرياً في كل شيء تقريباً الفكر والسياسة والتنظيم والوسائل والأهداف والخطاب السياسي وغير ذلك.لقد تخلوا عن اللينينية، وأدانوا الستالينية، ونبذوا النموذج السوفييتي الذي كان سائداً. ولكنهم، في الوقت نفسه، يقرون ويعترفون بنصيبهم كاملاً من المسؤولية عما حصل خلال التجربة الفاشلة السابقة.

وهذا بالذات أكسبهم مصداقية كبيرة، بالاضافة إلى أن برامجهم الانتخابية جاءت لتعبر عن الطموحات الآنية والمستقبلية القريبة لجماهير

الشعب، من خلال طروحات وشعارات قابلة للتحقيق، واتباع سياسة هادئة ومرنة، بعيداً عن الصخب والشعارات الطنانة. وستؤدي هذه الأحزاب الحساب عن نتائج عملها في الانتخابات النيابية الديمقراطية القادمة، التي سيكون للشعب القول الفصل فيها.

إن هذه الأحزاب تسعى فعلياً للتحرر من عبء الماضي والتحول إلى قوى يسارية اشتراكية ديمقراطية حديثة. ولو كانت هذه الأحزاب ترغب في أن تبقى شيوعية لما غيرت اسمها وبناءها وخططها وبرامجها! هذا وقد انفرد الأستاذ يعقوب كرو بكتابة تحليل موضوعي متزن عن هذه القضية، وذلك في مقالة بعنوان «نجاح الاشتراكيين في المجر وأسباب هذه الظاهرة» نشرت في العدد 496 من جريدة «نضال الشعب»

سادساً:

مافتئت وثائق الحزب المختلفة وصحافته وأقوال وتصريحات مسؤولية تشير باستمرار إلى صمود وثبات الدول الاشتراكية الأربع الصين وفيتنام وكوريا الديمقراطية وكوبا. وإذا كنا نفهم ونتفهم الاعتبارات السياسية والتاريخية والنفسية التي تدعو إلى الحفاظ على علاقات ودية مع هذه البلدان وأنظمتها وأحزابها الحاكمة، فإننا نستغرب الاصرار على وصفها بأنها «دول اشتراكية ».لأن شعبنا ومعظم شعوب العالم على علم ودراية بالخصائص الأساسية العامة لتجربة البناء والتطور في هذه البلدان الأربعة. وإذا كانت قد حققت انجازات عظيمة لايستهان بها فقد أصبح معروفاً أيضاً أنه توجد فيها

«وفرة في الفقرة» كما أن التجربة «الديمقراطية جداً» لبعض أنظمتها تجعل المرء يتحسر على أيام الأباطرة والمماليك وسلاطين بني عثمان !.

إن اعتبار هذه الأنظمة اشتراكية من قبل حزب يتبنى الخيار الاشتراكي يكون في المحصلة دعوة إلى الناس للنفور من الاشتراكية والانفضاض عن الحزب !! هذا من الناحية العملية. أما من الناحية النظرية فإن إطلاق صفة الاشتراكية على تلك الأنظمة يتعارض مع الفهم المعاصر والانساني للاشتراكية الذي يحاول الحزب بلورته وطرحه في وثائقه العديدة بما فيها البرنامجية. كما يتناقض مع الفهم الماركسي للاشتراكيةباعتبارها تشكيلة اجتماعية اقتصادية أعلىوأرقى من الرأسمالية وأكثر تطوراً منها في جميع المجالات.

إنه لخطأ فادح وانزلاق خطير أن يجري اختزال وإفقار مفهوم الاشتراكية ليصبح مجرد نظام حكم يقوم ببعض الاجراءات التقدمية، ويحقق مكاسب ونجاحات محددة في ظروف تاريخية معينة، حتى لو ترافق ذلك مع أساليب القهر والقسر والارهاب. ويبدو أن بعض «الرفاق » عندنا يعتقدون أن كل بلد يحكمه حزب شيوعي أو يدعي الماركسية اللينينية هو بلد اشتراكي، بغض النظر عما يجري فيه، ومهما فعل ذلك الحزب سلباً أم إيجاباً، نجاحاً أم إخفاقاً!

وتظل كوبا في قلب وعلى رأس اهتمامات الحزب الخارجية. ربما لكونها كانت الأقرب إلى النظام السوفييتي السابق وفيها الشيء الكثير من

«ريحة المرحوم»! إن الحيز الكبير الذي تشغله كوبا وقضاياها ومايتعلق بها على صفحات جريدة «نضال الشعب » أمر مدهش حقاً، ويأخذ أبعاداً غير معقولة. فها هو العدد اليوبيلي ذو الرقم 500 للجريدة الصادر في 1994/9/7 يتصدر صفحته الأولى عنوان كبير مكتوب كمانشيت عريض باللون الأحمر: «الحقيقة حول مايجري في كوبا» وبطبيعة الحال فإن الحقيقة المعروضة في المقالة جزئية لأنها تمثل بشكل عام، وجهة نظر الحزب الشيوعي الكوبي الحاكم. وفي الوقت الذي يقوم فيه محرر الصفحة الثقافية في الجريدة بجهد مشكور حيث يستعرض إبداعات وانجازات رواد النهضة العربية، فيكتب عن كل واحد منهم مقالة واحدة، في هذا الوقت نجد أن المحرر نفسه يخرج عن المألوف ويكتب ثلاث مقالات متتالية في الأعدد508-510 عن مناضل وثوري كوبي قديم اسمه خوسيه مارتي استشهد شاباً في العام 1895، وكان في حياته قد كتب بعض المقالات والأشعار. ويغدق المحرر على المناضل الكوبي دون حساب آيات التبجيل والمدح والاطراء، ويحاول بشكل فج وغير لائق وغير مفهوم أن يجعل منه أحد أعظم الرجال في التاريخ!! علماً بأن مقارنة موضوعية بسيطة بين خوسيه مارتي (من خلال ماكتبته «نضال الشعب» نفسها) وبين أكثرية، إن لم نقل كل، شهداء السادس من أيار، على سبيل المثال، تظهر بجلاء ووضوح أنه لايتفوق على أي منهم لامن حيث البطولة والشجاعة ولامن حيث الابداع والارث الفكري والثقافي. ولكنه اختير كفرد وكشخص رمزاً ومرجعاً ومتكأ للسلطة الحاكمة في كوبا حالياً وهذا سر

الاهتمام به!! وفي حين تحيي جريدة «نضال الشعب» الذكرى المئوية لوفاة خوسيه مارتي الذي لم يكن شيوعياً ولااشتراكياً، نجد أنها وهي لسان حال اللجنة المركزية لحزب شيوعي تنسى تماماً الذكرى المئوية لوفاة فريدريك أنجلس صديق ورفيق وزميل كارل ماركس، الذي أسس معه الماركسية والشيوعية! وقد مرت هذه الذكرى في 1995/8/5.

وخصصت الجريدة صفحتين كاملتين في عددها504(1994/12/17) للحديث عن اللقاء العالمي للتضامن مع كوبا. إننا إذ نؤيد ماجاء في النداء الصادر عن ذلك اللقاء من «أن حصار كوبا يجب أن يتوقف، وحق الكوبيين الثابت بأن يقرروا مستقبلهم، يجب أن يحترم»لايسعنا إلا أن نناقش ماجاء في المقالة الطويلة تلك عن صمود كوبا وثباتها على مبادئها ومقارنته بقول المقالة نفسها :«وهكذا فقد ألغي قرار منع تداول الدولار، وأصبح الدولار العملة الثانية في البلاد، وسمح بوصول المساعدات من المهاجرين الكوبيين إلى ذويهم وعائلاتهم دون إلزامهم بصرفها عن طريق الدولة واتخذت تدابير لإعادة تنظيم الزراعة، وأوقف قطاع الدولة، وسمح بقيام سوق زراعية للفلاحين، يبيعون فيها منتجاتهم بيعاً حراً بعد تقديم حصة الدولة، وأعطيب أراض زراعية لعائلات فلاحية لاستثمارها بغية تشجيع قوة العمل للعودة إلى الريف، وأقيمت سوق حرفية حرة.... واتخذت قرارات بالسماح للرأسمال الأجنبي بالاستثمار..

والسؤال الذي يطرح نفسه بقوة هو إذا كانت كوبا فعلت كل هذا فعلى أية مبادىء ثبتت، وماذا تبقى من «اشتراكيتها» وثوريتها وتحديها؟!

إن مايمكن ملاحظته بسهولة هو أن الشيء الوحيد الذي ثبتت عليه كوبا تماماً حتى الآن هو نظام الحكم وعلى رأسه فيديل كاسترو الذي يمسك بزمام السلطة منذ 1959/1/1.

لقد جرت خلال هذه الأعوام ال36 تغيرات كبيرة في جميع بلدان أميركا الجنوبية والوسطى وحوض الكاريبي، حيث سقطت الواحدة تلو الأخرى الديكتاتوريات العسكرية الشهيرة، وراحت هذه البلدان تخطو على طريق الديمقراطية خطوات وئيدةومرتبكة وصعبة ولكنها متصاعدة!

إن للشعب الكوبي حقيقته الناصعة والساطعة والبسيطة. وهي أنه يريد رفع الحصار الأميركي وإشاعة الديمقراطية وأن يعيش حياة حرة كريمة. إن الشعب الكوبي لن يشبع من مساعدات المهاجرين في أميركا، ولن يقتات على لحية فيديل كاسترو وخطبه النارية الرنانة!

سابعاً:

إن سوء الفهم لايقتصر على مفهوم الاشتراكية بل يتعداه إلى مفهوم الرأسمالية. حيث يجري تصوير الرأسمالية وكأنها مؤامرة شريرة يقوم بها ناس أشقياء يسعون للسيطرة على العالم. وكثير من الكتاب والساسة الماركسيين اللينينيين يطابقون بين النظام الرأسمالي وبين سياسة الادارة الأميركية أو تصرفات حلف الأطلسي أو نهج الاتحاد الأوربي وماشابه...ومن الطريف

والمضحك المبكي أن بعض المسؤولين في الحزب الشيوعي السوري راحوا، في الآونة الأخيرة، لايذكرون كلمة «رأسمالية»إلا ويلحقونها بصفة «وحشية» أو«متوحشة»! ظناً منهم أنهم بذلك يظهرون «ثوريتهم»و«ثباتهم على المبدأ»و«حقدهم الطبقي» و«نقاءهم البروليتاري »!!

إن كل تلك النظرات إلى الرأسمالية إنما تدل أول ماتدل على جهل فاضح بالماركسية.

إن الرأسمالية تشكيلة اجتماعية اقتصادية، إنها فترة طويلة جداً وغنية من تاريخ البشرية، أحدثت تطوراً مذهلاً في القوى المنتجة، وحفزت الانتاج والتكنولوجيا، ورفعت الانتاجية إلى حدود تفوق الخيال، وحصل تقدم علمي وثقافي عظيم وبلغت الحضارة الانسانية مستوى رفيعاً.

إن البشرية تعيش اليوم عصر الرأسمالية ومرحلة متقدمة من مراحلها هي الامبريالية، حيث أنجز رأس المال وحدة العالم، ولكن بشكل غير متكافىء. فقد قسم العالم إلى شطرين

مسيطر وتابع. ينعم الأول بالغنى والثروة والترف (لاتزول التناقضات البنيوية الملازمة للنظام الرأسمالي) وتغرق معظم شعوب الثاني في الفقر والبؤس وتعاني من وطأة التبعية والتخلف. إن الرأسمالية هي عالمنا المعاصر بكل تناقضاته وتعقيداته وتشابكاته، بكل مآثره ومآسيه، بكل مافيه من جمال وقبح، بانجازاته الحضارية العظيمة ومظاهر التوحش والاجرام والانحراف والعجز فيه. وهي ككيان اجتماعي، ستعيش دورة حياة كاملة.وسيدفعها

تطورها الذاتي المنبثق عن التناقضات الداخلية الملازمة لها نحو النهاية المحتومة ألا وهي الموت والزوال. ولكن لابد من الانتباه إلى إشارة ماركس الواضحة بأن أية تشكيلة اجتماعية لاتموت قبل أن تستهلك كل القوى المنتجة التي تجد لها متسعاً كافياً فيها. وستخلف الرأسمالية تشكيلة اجتماعية اقتصادية أرقى وأكثر حضارة وأوفر عدالة نسميها الاشتراكية، نرى أنها ستكون الشكل المتكافىء، الشكل العقلاني والديمقراطي والمتمدن لوحدة العالم.

إن كتاب «رأس المال» هو أعظم مؤلفات كارل ماركس. والجانب الاقتصادي في الماركسية من أقوى جوانبها، إن لم يكن أقواها على الاطلاق. في ضوء هذا الواقع كم تبدو شاحبة وباهتة وفقيرة تلك التنظيرات التي يعلمنا أصحابها فيها وكأنهم-اكتشفوا البارود-أن جوهر الاستغلال الرأسمالي لم يتغير !، أو تلك التي يستخف أصحابها بالتطورات الكبيرة التي طرأت على العملية الانتاجية وأشكال الاستثمار والاستغلال ويسخرون منها، جاهلين أو متجاهلين العلاقة الجدلية بين الشكل والمضمون.

هل يعقل أن هؤلاء لايعرفون أن إجراء عملية جراحية بدون مخدر، مثلاً، يختلف جذرياً عن إجرائها بمخدر موضعي أو عام؟! هل يعقل أنهم لايجدون فرقاً بين أن يجري التحقيق في دوائر الأمن «مع فنجان قهوة» وبين أن يجري «مع فلقة»؟!

إن عدم توفر الامكانية لاستئصال شر من الشرور لايلغي العمل من أجل تخفيف وطأته وحدته، وتقليل مساوئه ومنغصاته، وتغيير شكله وصولاً

إلى اتقائه والخلاص منه. كما أن عدم تغير جوهر الإستغلال لم يمنع من التمييز بين أنماط الانتاج المختلفة،مثل الرق والاقطاع والرأسمالية. فالمقولة الماركسية تشير إلى أن التشكيلات الاجتماعية الاقتصادية تختلف عن بعضها ليس بماذا تنتج وإنما بكيف تنتج ؟! ونجد مفيداً في هذا المقام التذكير بملاحظة هامة جداً أبداها الباحث الاقتصادي الأستاذ سمير سعيفان بقوله:«عبر التاريخ انتصرت الأنظمة الاجتماعية الأكثر تحفيزاً للانتاج على دعوات العدالة الاجتماعية المجردة، وعندما لم تستطع دعوات العدالة الاجتماعية أن تتجسد واقعياً في تنظيمات أكثر تحفيزاً للانتاج، انتصرت تنظيمات أخرى تقوم على الاستغلال، وقد كان هذا الانتصار في صالح تقدم البشرية، رغم التفاوت في توزيع الناتج، لأن المطلوب أولاً هو أن تنتج أكثر وأفضل كي تستطيع أن تعيش أفضل، وإن كان نصيب البعض أكبر.وإذا نضجت الظروف اليوم لخلق مجتمع عادل منتج، فإن هذا لن يكون إلا عبر خلق علاقات انتاج تحقق العدالة مثلما تحقق تحفيز وانطلاقة الانتاج بشكل أفضل.أما التنظيمات الارادوية التي تؤدي عملياً إلى كبح الانتاج بغاية تحقيق العدالة، فهي ضارة بالمجتمع ككل بما فيه فقراؤه، وهذا ماحدث في البلدان الاشتراكية سابقاً[20]»

ويبقى الاستغلال استغلالاً، سواء مارسه شخص فرد أو جماعة أو دولة. كما ينبغي التنويه إلى أن هناك فرقاً بين الاستغلال وبين الظلم. فالاستغلال

---

20 سمير سعيفان «الديمقراطية الاقتصادية»مجلة «دراسات اشتراكية» العدد151-152،1995-ص97.

نوع من أنواع الظلم، ولعله اساس من أساساته. ولكن الظلم أعم بكثير، إنه يشمل ايضاً القهر والقمع والعسف والاضطهاد والتسلط والهيمنة والإجحاف والارهاب والسلب والنهب وغير ذلك....

إن سجل الأنظمة الرأسمالية والدول الاستعمارية يحفل بكل أنواع الظلم، حيث ارتكبت وماتزال ترتكب مجموعة هائلة من الجرائم الكبرى بحق الانسان والانسانية،في مقدمتها الحربان الكونيتان الأولى والثانية.ولكن هذا لايحجب عنا أن «الثورة الثقافية » في الصين، وقبلها « عملية نشر التعاون في الريف» في الاتحاد السوفييتي هما من المظالم الكبرى في القرن العشرين، علماً بأنه يصعب تصنيفهما في خانة الاستغلال.

إذن، الرأسمالية ليست الفردوس المفقود، ولانهاية التاريخ ! فهي على الرغم من انجازاتها العظيمة والعملاقة التي من الغباء والسخف التغاضي عنها وإنكارها والاستهانة بها، تعاني من نواقص وعيوب ونقاط ضعف قاتلة. لذا يستمر نضال الشعوب لاتقاء شرور الرأسمالية وتجاوز سلبياتها وتخطيها بكل ما تمثله من استغلال اقتصادي وقهر اجتماعي وتغريب واستلاب للشخصية الانسانية ونهب استعماريلشعوب البلدان المسماة ناميةواحتكار الأقلية للسلطةوالثروة وغير ذلك.

إن أحد أهم الدروس المستخلصة من تجربة الحركة الثورية والعمالية والتطور العالمي في القرن العشرين هو أن الوصول إلى الأمل المنشود، أي الاشتراكية، لايكون بقطع التشكيلة الرأسمالية ولابمقاطعتها أو القفز فوقها أو الرجوع إلى ماقبلها.

إن النضال لتجاوز الرأسمالية يجب أن يجري من داخلها، عبر امكانياتها، ومن خلال تناقضاتها، وباستخدام انجازاتها. ومن الضروري جداً، في هذا المجال، الاستفادة القصوى من تجربة الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية، أي الأحزاب المنضوية تحت راية الاشتراكية الدولية، وهي الأممية الوحيدة التي مازالت قائمة. لقد أحرزت هذه الأحزاب، في أوربا، نجاحات كبيرة، وحققت لشعوبها مكاسب هامة، وقدمت تجربة غنية جديرة بالدراسة والاهتمام لايجوز بتاتاً تجاهلها أ والنيل منها. أما شتم الاشتراكية الديمقراطية واعتبارها تهمة وجناية فهو موقف ستاليني بنسبة مئة بالمئة لايعتمده في أيامنا هذه إلا غلاة التزمت والتقوقع والانعزالية وأولئك الذين يجب أن يكونوا من اختصاص المديرية العامة للآثار والمتاحف !

ثامناً:

يجب أن تعلم جريدة «نضال الشعب » وكل الصحف العربية، على اختلاف مشاربها واتجاهاتها، أن الانشغال والانهماك بالتضييق على الحريات في فرنسا، والملاحقات البوليسية في ألمانيا، وخرق حقوق الانسان في أميركا، وضعف الديمقراطية في بريطانيا، والركود الاقتصادي في اليابان لن يثيرا لدى القارىء العربي إلا شعوراً بالهزء والسخرية (حتى لو كانت الوقائع التي يجري عنها الحديث صحيحة).لأن القارئ العربي سيعلق على ذلك في السر أو في العلن قائلاً ترون القشة في عين غيركم وتنسون الخشبة في عينكم ! أو يقول « ليك مين عم يحكي» باللهجة العامية السورية.ولن يكتسب هذا

الكلام مصداقيته إلا عندما تأخذ تلك القضايا والممارسات على الساحة العربية حقها بالكامل من البحث والتغطية الاعلامية.

ويبقى أخيراً موضوع التنظيم الحزبي. هنا لاتظهر تجاعيد القديم فقط، بل يظهر القديم كله، بكامل قوامه. فالقواعد التنظيمية وفي مقدمتها مايسمى بمبدأ المركزية الديمقراطية، والبنيان الحزبي القائم عليها، وأساليب وتقاليد العمل بكل مافيها من بيروقراطية ومراتبية مازالت، بشكل عام، على حالها. حتى أن التسميات الحزبية بقيت هي هي كما في السابق. ومن المعلوم أن جميع التسميات مترجمة حرفياً عن اللغة الروسية. وبعضها مثل «اللجنة المنطقية» ذو صبغة روسية واضحة. إذ أن روسيا، وهي أكبر بلدان العالم من حيث المساحة، تنقسم إدارياً وطبيعياً إلى مناطق واسعة، شاسعة الأرجاء ومترامية الأطراف. وتنفرد الأحزاب الشيوعية العربية باستخدام اسم «اللجنة المنطقية» للإشارة إلى اللجنة التي تشرف على النشاط الحزبي في كل محافظة من محافظات البلد، في حين أن الأحزاب السياسية الأخرى تستخدم في الغالب، تسمية «الفرع» وحتى وقت قريب كان عدد المراتب التنظيمية في الحزب الشيوعي يساوي أو يزيد على عدد الرتب العسكرية في الجيش، ويوضح ذلك الجدول التالي

	الرتب العسكرية في الجيش	المراتب التنظيمية في الحزب الشيوعي
1	مجند	مرشح لعضوية الحزب
2	عريف	عضو الحزب
3	رقيب	أمين فرقة
4	رقيب أول	عضولجنة فرعية
5	مساعد	أمين لجنة فرعية
6	مساعد أول	عضو لجنة منطقية
7	ملازم	عضو مكتب لجنة منطقية
8	ملازم أول	أمين لجنة منطقية
9	نقيب	عضو لجنة مراقبة
10	رائد	عضو مرشح للجنة المركزية
11	مقدم	عضو لجنةمركزية
12	عقيد	سكرتير لجنة مركزية
13	عميد	عضو مرشح للمكتب السياسي
14	لواء	عضو مكتب سياسي
15	عماد	عضو مكتب سياسي وسكرتير لجنة مركزية
16	فريق	أمين عام مساعد
17	مشير	أمين عام

ومعلوم أن سورية لم تعرف رتبة «المشير» إلافي عهد الوحدة مع مصر، وما من سوري حمل هذه الرتبة، كماأن رتبة «العماد» حديثة العهد في جيشنا. وفي الحزب الشيوعي السوري اختصر المؤتمر السابع الموحد (عام 1991) أربع مراتب حزبية هي الأمين العام المساعد وتلك التي تحوي كلمة«مرشح ».

غير أنه تشكل في بعض «المنطقيات » مكاتب متخصصة ولجان قطاعية ومحلية وريفية ومدينية والخ...

وبالرغم من أن النظام الداخلي ينص في كل طبعاته وتعديلاته على أن الهيئة التي تقود عمل الحزب بين مؤتمرين هي اللجنة المركزية، بالرغم من ذلك، يعرف كل من انتسب إلى الحزب الشيوعي أن الذي يتحكم بجسم الحزب إنما هو رأس (الأمين العام) ورقبة (المكتب السياسي)!، وأن اللجنة المركزية ماهي إلا هيئة استشارية لاحول لها ولاقوة. وصار معروفاً في الآونة الأخيرة أن عضوية السكرتاريا واللجنة المركزية ولجنة المراقبة ماهي إلا جوائز ترضية من الدرجة الأولى والثانية والثالثة على الترتيب!.

وبشكل مماثل تهيمن مكاتب اللجان المنطقية على اللجان نفسها وتحرمها من ممارسة دورها.

إن هذه التعددية في المراتب والهيئات القيادية تعرقل عمل الحزب وتعقد تنظيمه وتزيد من البيروقراطية والمحسوبية فيه، وتساهم في تشتيت الجهود وإضاعة المسؤولية. إن أولى مستلزمات الاصلاح تقضي بإزالة الحلقات الشكلية أو الضارة، واستبدال المكتب السياسي والسكرتارية واللجنة المركزية ولجنة المراقبة

بهيئة واحدة تكون قائدة حقيقية للحزب، ويمكن اختيار أي اسم لها، وليكن لجنة مركزية، عندها يصبح في الحزب أربع درجات تنظيمية تمثلها أربع هيئات فقط فرقة شعبة فرع لجنة مركزية. ويكون لكل منها مسؤول منتخب. بهذا ينخفض عدد المراتب الحزبية إلى ثمانية. و لم يقتصر الأمر على المراتب والتسميات، بل تعدى ذلك إلى النقل الحرفي والتقليد الميكانيكي لكل التخريجات والتقليعات البيروقراطية السوفييتية السابقة.

ومن ذلك تقسيم الهيئات الجماعية العليا صاحبة القرار إلى نوعين :مؤتمر (ابن ست) ومجلس وطني (ابن جارية) وإطالة الفاصل الزمني بين مؤتمرين وجعله من 4 إلى 5 سنوات(في الأحوال العادية) وإضفاء جو احتفالي واستعراضي على مؤتمر الحزب وإعطاؤه طابعاً استثنائياً وخارقاً للعادة. علماً بأن كثيراً من الأحزاب السياسية في العالم تعقد مؤتمراتها سنوياً أو مرة كل سنتين. وهذا يضمن متابعة أحسن ومراقبة أفضل وتدقيقاً مستمراً لسياسة الحزب ونهجه وبرامجه وخططه وتوجهاته ونشاط قيادته. وهناك أحزاب تفصل بين مؤتمر الحزب وانتخابات القيادة فيه، حيث تجري هذه الاخيرة بفواصل زمنية أبعد (كل ثلاث سنوات مثلاً) ومن قبل هيئة انتخابية قوامها معلوم ومتفق عليه، لها مهمة واحدة فقط هي انتخاب قيادة الحزب. ولعل هذه الطريقة تفيد في تخليص مؤتمر الحزب من عبء الانتخابات وتسمح للمندوبين بالتركيز على معالجة القضايا السياسية والفكرية الهامة والمسائل الحزبية الملحة.

في إطار استخلاص الدروس التنظيمية مما جرى، كتب جو سلوفو رئيس الحزب الشيوعي في جنوب افريقيا:«بات كتاب لينين العظيم » «ماالعمل؟» الذي كتبه عام1902انجيلنا التنظيمي.

إن مفهوم الحزب الوارد في «ماالعمل » مفهوم غير مناسب على الإطلاق وغير قابل للتطبيق في ظروف العمل العلني ناهيك عن الظروف التي تسودبعد استلام السلطة. هل ثمة ماهو مناقض للواقع أكثر من إعلاء شأن هذا المؤلف العبقري للينين(هذا المؤلف الذي كان يرمي إلى انجاز بناء حزب سري أو نصف علني في ظروف روسيا القيصرية) وتحويله إلى نوع من الكتب المقدسة التعليمية بالنسبة لنا؟[21]»

أما في الحزب الشيوعي السوري فقد جاء في تقرير اللجنة المركزية أمام المجلس الوطني عن سياسة الحزب التنظيمية مايلي:«إن إسلوب التثقيف السابق والذي يعتمد على التلقين وعلى أدبيات يعالج بعض منها قضايا بعيدة عن ظروف بلادنا لم يعد كافياً، وإن من الضروري اتباع أساليب أكثر مرونة وأكثر ارتباطاً بظروف الحزب والبلاد». لاحظوا الصياغة الناعمة وهذه ال«لم يعد كافياً» التي تعني، بالعربي الفصيح، أن ذلك الأسلوب العقيم كان كافياً في السابق، وهو الآن جيد ومفيد وضروري ولكنه غير كاف، يجب أن نضيف له بعض الأشياء !

---

21 جو سلوفو: « الاشتراكية بين الأحلام والوقائع» مجلة «النهج»العدد 3ـ ربيع 1995.

ياله من انتقاد ذاتي شديد! وياله من توجيه للتثقيف سديد! ماالذي يمنع القول إن ذلك الأسلوب لم يكن صالحاً أو، على الأقل وفي أضعف الايمان، لم يعد صالحاً ؟! هل هو الخوف من «جلد الذات» أو من «الشطط» ؟! متى نمتلك شجاعة الشيوعيين الآخرين، وماأكثرهم، ونعلن أن قواعد التنظيم اللينينية بما فيها «المركزية الديمقراطية » لاتناسبنا، وأننا سنفصل ثوباً على قدنا ومقاسنا وبما يتلاءم مع مناخنا وإمكاناتنا؟!

الفصل السادس

القيد المثلّث

(لينين أكتوبر سوفييت)

من السهل على الشيوعيين السوريين في الوقت الحاضر، أن يتوصلوا إلى اتفاق أو تفاهم أو لغة وقواسم مشتركة بخصوص السياسة الداخلية والوضع الاقتصادي وقضايا التحالف والجبهة الوطنية التقدمية ومسائل السلام في الشرق الأوسط والعالم وتأييد النهج الوطني للبلاد، وغير ذلك من قضايا ومسائل كبرى، ولكن، ماأصعب أن يتفق الشيوعيون السوريون حول ثورة اكتوبر البلشفية في روسيا وقائدها لينين ووليدها الاتحاد السوفييتي ! إن الاتفاق صعب لدرجة أن التيارات والقوى والمواقف داخل الحزب تتباين وتتمايز من خلال النظرة إلى اللينينية والتجربة السوفييتية، كما لاحظنا في الفصل الثاني من هذا الكتاب عند الحديث عما أسميناه بتضاريس الصراع.

قد يستغرب المرء، للوهلة الأولى، أن تؤدي مثل هذه المواضيع إلى نشوء تناقضات أساسية وبروز تيارات متعارضة واتجاهات متباينة وقيام صراعات

جدية داخل الحزب، لأنها تبدو مواضيع ثانوية تتعلق بـأمور خارجيـة وبعيـدة في الزمان والمكان. لكن الواقع يقول غير ذلك. فـالخلاف والاختـلاف حـول لينين واكتوبر والسوفييت إنما يعكسان الخلاف والاختـلا ف في الموقـف مـن الحزب بالذات، من فكره ودوره وهويتـه وموقعـه وبنائـه التنظيمـي وبرنامجـه وأهدافه ونهجه وخطابه السياسي، يعكسـان باختصـار، المواقـف مـن مـاضي الحزب وحاضره، وبخاصة، مستقبله.

إن الكلمات الثلاث لينين وأكتوبر والسوفييت، كلمات مشهورة جداً وأسماء لامعة ومرموقة، دخلـت بقـوة صفحـات التـاريخ العـالمي. لأنهـا رمـز وعنوان لتجربة غنية وكبيرة أثرت النضال العالمي وأثّـرت تأثـيراً عظيمـاً علـى مجريـات الأحـداث في القـرن العشـرين، وسـاهمت في ترسـيخ مجموعـة مـن المفاهيم والقيم والأهداف الانسانية النبيلة. لذلك من الطبيعي، أن تكون هـذه الأسماء الثلاثة محط أنظار وموضع بحث المفكرين والمثقفين والسياسيين. ولكن الثالوث لينين أكتوبر- سوفييت أصبـح بالنسـبة للشـيوعيين الكلاسـيكيين (اليمينيـين والوسـطيين عمومـاً) أصبـح قيـداً مثلثـاً يمسـك بخنـاقهم، ويعيـق حركتهم، ويعرقل تطورهم، ويمنع تجديدهم لأنفسهم.

ما السبب ؟ ماهو تفسير ذلك ؟!

إن المفكـر أو المثقـف أو السياسـي غـير الشـيوعي أو الشـيوعي غـير الكلاسيكي يتعامل مـع لينـين، مثـلاً، ومـع إرثـه الفكـري والنضـالي ببسـاطة

وحرية وراحة،دون خوف من قداسة أو رهبة من تبجيل أو مهابة من مقامات عالية. ولايجد حرجاً في دراسته دراسة علمية ونقدية (من وجهة نظره). أما الشيوعيون الكلاسيكيون (وهم من نقصده بالذات عند حديثنا عن الشيوعيين لاحقاً) فلا يقدرون على فعل ذلك.وكيف يقدرون وهم الذين يحتفلون سنوياً على النطاق العالمي، بعيد ميلاد لينين، ويعتبرون هذا الطقس الديني البحت (على غرار عيد ميلاد السيد المسيح والمولد النبوي الشريف) واجباً نضالياً، وفعلاً ثورياً وتقدمياً، ودليلاً على الصلابة والثبات على المبدأ ؟!

وقد جرت في هذا العام أيضاً احتفالات واسعة، عديدة ومتنوعة، بمناسبة عيد ميلاد لينين في مختلف منظمات الحزب الشيوعي السوري، طالعتنا جريدة «نضال الشعب» بأخبار عنها.

من المعروف أن عيد ميلاد لينين يقع في 22 نيسان، والعيد الوطني السوري، عيد الجلاء، يحل في 17نيسان. لهذا نقرأ ونسمع أن هذه المنظمة الحزبية الشيوعية أو تلك احتفلت بعيد الجلاء وعيد ميلاد لينين ! ويتلازم العيدان ويمتزجان عند الشيوعيين. فيقدمون بذلك دليلاً آخر على وضعهم المزدوج والمتناقض،حيث تقف الوطنية الصادقةجنباً إلى جنب مع سوء التصرف. إن شعبنا يقدر عالياً للشيوعيين اهتمامهم الكبير بالعيد الوطني الأكبر، عيد الجلاء، واحتفاءهم الدائم به.ولكن، وفي الوقت نفسه، فإن شعبنا يستغرب ويستهجن الاحتفال السنوي بعيد ميلاد الرجل الأجنبي فلاديمير

إيليتش أوليانوف (لينين)، على الرغم من أنه لايحمل له أية ضغينة، ويكن الاحترام لثورته ولدولته. إن تقديس البشر، في أيامنا هذه، أمر غير مقبول عموماً، وبخاصة إذا كانوا أحانب، وعلى الأخص في بلاد مثل بلادنا هي مهبط الديانات السماوية، ولاتعاني من أي نقص في الأنبياء والقديسين والأولياء الصالحين !!. إن الاحتفال الطقوسي بعيد ميلاد لينين هو عمل ضار وخاطىء وغير ضروري وغير لازم وغير مبرر لاسياسياً ولااجتماعياً ولافكرياً! والاصرار على ممارسته هو إصرار على استمرار التبعية والغربة والابتعاد عن الشعب. ويشكل، بالتالي، إساءة بالغة للحزب. ولاتفوتنا الاشارة إلى أن بعض الشيوعيين مايزال يرى في صيانة ضريح لينين المرمري والحفاظ على جثته المحنطة جهاداًثورياً وفعلاً نضالياً مهماً (هذا الطقس الفرعوني المصري القديم عاد للظهور في القرن العشرين، بعد أكثر من ثلاثة آلاف سنة، على يد الشيوعيين !!)

ومما يلفت الانتباه ويثير الدهشة ويحتوي، في الوقت نفسه، على قدر كبير من الطرافة أن الشيوعيين لايعيرون اهتماماً لعيدي ميلاد مؤسسي الماركسية والشيوعية ماركس وأنجلس أو لذكرى وفاتهما. والأدهى من ذلك أن انتقاد الماركسية أو ماركس أو أنجلس لايثير لدى الشيوعيين ذلك السخط والاستنكار والتشنج والاستفزاز الذي يثيره انتقاد لينين واللينينية ! ولمصطلح «الماركسية » عندهم وقع آخر مختلف تماماً عن وقع مصطلح «الماركسية اللينينية » الذي يقدسونه معتبرين إياه رمزالنظريتهم وفكرهم وممارستهم.

ويصل التعنت لدى بعضهم أحياناً إلى حد القيام بتصرفات صبيانية مضحكة. ففي كثير من الاحتفالات والمهرجانات العامة ما إن تذكر كلمة «لينينية» حتى يعلو الهتاف والتصفيق !

بعد التأمل والتفكير في هذه الظاهرة استنتجت أنها ظاهرة طبيعية، لها مايشبهها في حياة المجتمعات. فلو أخذنا الأديان، على سبيل المثال، لوجدنا أنها كلها تدعو إلى الايمان بالله وعبادته. ولكن لكل منها نبيه الخاص الذي يؤدي المساس به أو التعرض له بأي شكل من الأشكال، عدا التبجيل والتعظيم والاجلال، يؤدي إلى عواقب وخيمة جداً، تفوق عادة العواقب المترتبة على التعرض للذات الإلهية نفسها. وقد نجد في الدين الواحد طوائف ومذاهب وفرقاً مختلفة تتبع نبياً واحداً، ولكن لكل منها إمام أو أمير جماعة أو شيخ طريقة أو ماشابه ذلك.

وغالباً مايكون التعرض لهؤلاء أسوأ بكثير من التعرض للنبي نفسه أو للذات الالهية. وبالمثل، نجد أن الشيوعيين شاؤوا ذلك أم أبوا، اعترفوا بذلك أم لم يعترفوا هم تيار من التيارات الماركسية وفرقة من فرق الحركة الاشتراكية والثورية العالمية، ولينين بالنسبة لهم بمثابة الإمام وأمير الجماعة وشيخ الطريقة والقائد المؤسس والملهم والمرشد!!وهذا جزء من القضية. أما الجزء الثاني فيتمثل في أن لينين واكتوبر والسوفييت تشكل رموزاً لتلك السلطة العزيزةوالغالية على قلوب الشيوعيين، والتي افتقدوها مؤخراً ولازالوا يتفجعون عليها، ويأملون في عودتها واستعادة العز القديم معها.

ولايمكن لأحد أن يدرس اللينينية كقضية نظرية بحتة بمعزل عن ثورة اكتوبر البلشفية وتجربة النظام السوفييتي. لقد بنيت على أساس هذا المثلث المترابط مجموعة كبيرة من الاستنتاجات النظرية والتأويلات والتعميمات، وترسخت مفاهيم ومبادىء ومعتقدات كثيرة أخذ بعضها صفة القانون أو أصبح من المسلمات والبدهيات. لقد كانوا في الحزب الشيوعي السوفييتي السابق يعرفون اللينينية على النحو التالي :« فإن اللينينية إنما هي الماركسية في العهد التاريخي الجديد، عهد يشكل الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية مضمونه، عهد انهيار الرأسمالية وانتصار الاشتراكية والشيوعية. فلا توجد ولايمكن أن توجد الماركسية بدون ذلك الجديد الذي حمله إليها لينين [22]»

وبعد أ ن لفظ الواقع هذا التعريف، راحوا يسحبونه من التداول. و لم يعد يأخذ به ويعتمده إلا غلاة اليمينيين المحافظين. في هذا السياق، تكتسب مصداقية كبيرة الملاحظة الذكية والمهمة التي أبداها رئيس الحزب الشيوعي في جنوب أفريقيا جو سلوفو حول موقع اللينينية في جسم التعاليم الماركسية حين قال :«أعتقد أن قسطاً لايستهان به مما يطلق عليه اسم اللينينية والذي نهلنا منه جميعاً لم يكن في حقيقة الأمر إلا ستالينية أعيد تغليفها. فالكثير منه لم يكن إلا ستالينية تبحث عن مشروعية.إن لحظات الممارسة الثورية المحددة التى جرى تصويرها على أنها مسلمات ماركسية كلية لاتشيخ مع الزمن ساعدت على إسباغ صفة

22 لينين مختارات (في أربعة أجزاء، باللغة العربية) مقدمة الجزء الأول الصفحة 8.

العقلانية على جملة الأساليب اللاديمقراطية داخل الحزب وفي قلب المجتمع على حد سواء[23]»ومع قناعتنا بصحة وصواب هذه الملاحظة نتساءل هل يستطيع أحد أن يفصل الستالينية ويعزلها عن اللينينية ؟ وإذا فرضنا جدلاً أننا تمكنا من تخليص اللينينية من الشوائب الستالينية وحصلنا على لينينية خالصة وصافية ونقية، فما هي هذا اللينينية الخالصة الصافية والنقية؟!

إن السؤال الأخير يشغل، على مايبدو، بال الكثيرين في الحزب الشيوعي، وتجري محاولات ومساع حثيثة ودؤوبة للإجابة عليه. ولاأدل على ذلك من الكتابات المتنوعة والمستمرة التي يحاول أصحابها فيها شرح جوهر اللينينية وتوضيح مغزاها ومعناها وعبرتها. ويبدو أن الرأي السائد والشائع بين الشيوعيين الآن هو ذاك الذي يرى أن «جوهر اللينينية هو إمكانية انتصار الثورة الاشتراكية في بلد واحد وإمكانية بناء الاشتراكية في بلد متخلف نسبياً مثل روسيا» إن هذه الرؤية لجوهر اللينينية تبعث على الدهشة لسببين، على الأقل، أولهما أن اللينينية تبدو فقيرة وقليلة الشأن بمثل هذا الجوهر، وتتعارض جبهياً مع الماركسية. وثانيهما أن الجانب الذي يجري إبرازه في اللينينية من خلال الجوهر المذكور هو الجانب الأقل حظاً وتوفيقاً في الامتحان التاريخي. إن انهيار الاتحاد السوفييتي وسقوط الأنظمة الشيوعية في أوربا الشرقية وفشل تجربة «بناء الاشتراكية » كلها مؤشرات ودلائل ليست في صالح اللينينية، ولاتزكي آراء لينين وتنبؤاته، ولاتدعم استنتاجاته، بخاصة الآن وقد توحد

---

23 جو سلوفو ـ مصدر سابق.

العالم اقتصادياً. فحتى في الصين وفييتنام وكوريا الشمالية وكوبا حيث تحكم أحزاب شيوعية ماركسية ـ لينينية نسمع ونقرأ كل يوم عن «إصلاحات» وإجراءات جديدة تسير كلها في اتجاه تعميق الصلة بالعالم الخارجي وزيادة الارتباط بالسوق الرأسمالية العالمية. أما الصين فتقيم، منذ أمد بعيد، علاقات شراكة من نوع خاص مع الولايات المتحدة الأميركية (لقد كانت الصين من أشد الدول عداء للاتحاد السوفييتي فقد أرهقته وأثقلت كاهله، حيث خصّص لمحابهتها أموالاً طائلة وموارد هائلة. ولاأدري لماذا لايشار إلى دور الصين الشيوعية في انهيار الاتحاد السوفييتي؟!)

غير أن للمتمسكين باللينينية وجهة نظر أخرى فهم يعتبرونها صحيحة بدلالة انتصار ثورة أكتوبر في روسيا وبقاء السلطة السوفييتية أكثر من سبعين عاماً واستلام الأحزاب الشيوعية لزمام السلطة في بلدان عديدة في مختلف القارات. هذا من جهة ومن جهة ثانية، فهم يرون أن فشل تجربة أو محاولة لايعني فشل النظرية وبطلانها، أو أن سقوط عمارة ما لاينفي صحة قوانين الهندسة.

باعتقادي، أن هذه النظرة للأمور نظرة ميتافيريقية، ليس فقط لأنها تفصل بشكل تعسفي بين النظرية والممارسة، وتفترض وجود فكر خارج الواقع، بل لأنها لاتلحظ أن حياةومصائر الشعوب ليست تجارب كيميائية تجري في مخبر وأن تطور المجتمع لاتحكمه قوانين الهندسة أو الفيزياء أو الرياضيات. فالعلوم، كل العلوم، هي نتاج لعمل وإبداع الانسان. ولاوجود للعلم ولامعنى له خارج الانسان،خارج المجتمع البشري.

إن ذاك المنطق وتلك المحاكمة، وكذلك الحجج المشابهة، إنما تذكرني بمنطق ومحاكمة وحجج« الأصوليين» الاسلاميين المتطرفين التي نجد في كتاب «تدوين السنة» مثالاً نموذجياً عليها من خلال الرواية التالية :«يقول الأستاذ أحمد أمين في كتابه فجر الاسلام»

حتى نرى البخاري على جليل قدره يثبت أحاديث دلت الحوادث الزمنية والمشاهدة والتجربة على أنها غير صحيحة، كحديث (لايبقى على ظهر الأرض بعد مائة سنة نفس منفوسة) وحديث (من اصطبح كل يوم بسبع تمرات من عجوة لم يضره سم ولاسحر ذلك اليوم إلى الليل) وننقل فيما يلي فقرات من النقد الواهي الذي وجهه أحد هؤلاء الأصوليين وهو مصطفى السباعي في كتابه «السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي » ص(213)للأستاذ أحمد أمين عن حديث (من اصطبح كل يوم بسبع تمرات من عجوة...) يقول السباعي: « إنه ولاشك في أن إقدام مؤلف كتاب «فجر الاسلام» على القطع بتكذيب هذا الحديث جرأة بالغة منه لايمكن أن تقبل في المحيط العلمي بأي حال مادام سنده صحيحاً بلا نزاع،ومادام متنه صحيحاً، لايضره بعد ذلك أن الطب لم يكتشف حتى الآن خواص العجوة. ويقيني أنه لو كان في الحجاز معاهد طبية راقية، أو لو كان تمر العالية موجوداً عند الغربيين لاستطاع التحليل الطبي الحديث أن يكتشف فيه خواص كثيرة، ولعله يستطيع أن يكتشف هذه الخاصية العجيبة إن لم يكن اليوم ففي المستقبل إنشاءا لله[24]» هكذا إذن، فالحديث صحيح والمشكلة في علم الطب

---

24 ابراهيم فوزي كتاب «تدوين السنة» رياض الريس للكتب والنشر 1994،ص241-242

الذي لم يكتشف حتى الآن خواص التمر. وبشكل مشابه، اللينينية صحيحة والذنب ذنب التاريخ و لناس الذين لم يستطيعوا أن يبنوا الاشتراكية كما علمهم لينين ولعلهم يستطيعون ذلك في المستقبل إنشاء الله. ولاتبتعد عن هذه المنهجية الكتابات التي ترى مغزى اللينينية في عدم القبول بقدرية الحتمية التاريخية وعدم الانتظار حتى تنضج الظروف الموضوعية وتختمر، وفي فعل الارادة الثوري بغض النظر عن النتائج والعواقب التي تترتب على هذا الفعل الثوري حتى لوكانت وخيمة ومأساوية كما حدث للتجربة السوفييتية.

لاأدري إذا كان أصحاب هذا الرأي لاينتبهون إلى أن اللينينية بالمغزى الذي يقدمونه إنما تنضج بالإرادوية وتمتلىء بالذاتية وتعج بروح المغامرة أم أنهم يرونها على هذه الصورة بالفعل. وهي تعجبهم ويحبونها لأنها كذلك ؟ـ لقد قرأت مثل هذه التحليلات في مقالة نشرتها جريدة «نضال الشعب» كتبها الطبيب الدكتور سمير التقي الذي لايكاد يخلو عددمن أعداد الجريدة في الآونة الأخيرة من مقالة له في موضوع من المواضيع. وفي إطار تحليلاته قارن الكاتب، بشكل غير مباشر، بين فعلين تاريخيين مختلفين من حيث الزمان والمكان والدوافع والنتائج فقال :«...وبئس هي من يد لجلاد سيف الدولة تعلّق السهر وردي بباب حلب بعد أن سحلته جماهير الغوغاء بخيارها «الديمقراطي » في الشوارع، لم تعمر الحضارة من هكذا «خيار ديمقراطي »بل إنها ماكانت لتكون وتنمو لولا الخيار الديمقراطي ببعده الثوري الواعي [25]».

---

25 د. سمير التقي « بجبهة مرفوعة ننظر إلى الماضي» جريدة «نضال الشعب العدد 505 (1994/12/29)

ثم انتقل بعد ذلك للحديث عن لينين والثورة الروسية فقال «أليست هذه اللحظات هي التاريخ بعينه، أليست من صنع الجماهير ؟ وهل تتصورون أن التاريخ سيتوقف على اقتناع لينين بطروحات كاوتسكي أم أنه انصاع لانتفاضة الشعب الروسي...؟ ماذا كنت ستقول للملايين تدمر قصر الشتاء؟ هل ستقول توقفي عن ثورتك، فعلماؤنا الأفذاذ لم يحددوا بعد مآلها بعد سبعين عاماً ؟[26]»

لن نتوقف هنا عند الخطأ التاريخي المتعلق بالسهروردي الذي لم يقتل على يد جلاد سيف الدولة، وإنما قتل بعد ذلك بأكثر من مئتين وثلاثين سنة على يد جلاد الملك الظاهر بن صلاح الدين الأيوبي [27]كما أننا سنترك مسائل الجماهير والغوغاء والخيار الديمقراطي وعمى التاريخ وإبصاره وآلية صنعه وغيرها، سنتركها لكاتب المقالة، لأنه الأقدر عليها وهو النطاسيّ البارع والسياسي الجامع المتبحر في كافة مجالات العلم والثقافة والمعرفة بألمعية نادرة لايضاهيه فيها ابن سينا وأي من علماء القرون الوسطى !! إننا سنتوقف ملياًعند موضوع الثورة الروسية، ليس فقط لكي نقول إن أحداً لم يدمر قصر الشتاء، بل لنقدم معلومات هامة جديدة غيرمعروفة للقارئ العربي، علنا

---

26 المصدر السابق

27 راجع «تاريخ الأدب العربي »لشوقي ضيف الجزء الخامس الصفحة 624أو مقالة«السهروردي الشهيد»لمحمد أمين أبو جوهر مجلة «دراسات اشتراكية »العدد127 تموز 1992.

بذلك نسهم بقسط متواضع في الكشف عن الحقيقة من خلال إزالة الغبار المتراكم على وجهها، وتخليصها من التشويهات والتحريفات المغرضة، وفضح الأكاذيب والتلفيقات الستالينية التي وقعت ضحية لها أجيال متعاقبة من الثوريين والمناضلين والتقدميين في كافة أرجاء المعمورة (هناك أناس يريدون أن يبقوا ضحايا حتى النهاية !).

من أجل ذلك سنورد فيما يلي مقاطع مطولة ترجمناها من مقالة للكاتب والأديب الروسي بوريس فاسيلييف نشرتها على حلقات جريدة « الازفستيا» السوفييتية في مطلع العام 1989.

والكاتب كما يستشف من المقالة متعاطف مع ثورة اكتوبر،محب للينين، مؤيد للحزب الشيوعي،ولكنه يرغب في الحقيقة كواحدة من أهم القيم الأخلاقية. يقول فاسيلييف :»كل المشاركين في الهجوم على قصر الشتاء من جون ريد إلى ابن المئة وستة أعوام أ.د بريانسكي الذي مازال حياً يرزق يؤكدون أنه لم تطلق طلقة واحدة في القصر. ولكن بعد ثلاث سنوات، أي في 7 نوفمبر عام1920 وفي أثناء اجتماع احتفالي أقيم في موسكو للمشاركين في انقلاب اكتوبر، القى ن. بودفويسكي أحد قادة الهجوم على قصر الشتاء كلمة قال فيها:«لقد انفجرت بعض العبوات الناسفة في ممرات القصر.. واكتسح البحارة والحرس الأحمر والجنود المتاريس... وقضوا على المدافعين عنها... ويطيرون فوق السلالم... ويتعاركون مع اليونكر على الأدراج...ويقذفون بهم...» لقد بدأ يظهر الميل إلى تزويق الواقع و«تحسين»

التاريخ، الميل الذي أصبح فيما بعد نهجاً أساسياً. إن الانقلاب الأبيض فعل أخلاقي بعمق، فلماذا يجري بمثل هذه السرعة الخاطفة تحويله إلى فعل دموي ؟ إن هذا مثال واضح على تراجع الأخلاق « [28]تجدر الاشارة هنا إلى أنهم كانوا خلال السنوات الأربعة الأولى من عمر السلطة السوفييتية في روسيا، يطلقون اسم «انقلاب» على ما جرى في 25 اكتوبر (تشرين الأول) 7نوفمبر (تشرين الثاني) حسب التقويم الحالي من العام1917. وكانت الاحتفالات وقتها تقام لإحياء ذكرى «انقلاب اكتوبر» وليس «ثورة اكتوبر» كما صار مألوفاً وشائعاً فيما بعد. وعن بعض ملابسات تلك الثورة كتب فاسيلييف «...إنه لأمر محيرٌ. فالحكومة المؤقتة التي أشرفت على مقاومة كورنيلوف وقضت بسرعة على تمرده، لم تقم بأية محاولات جدية لمجابهة الخطر المحدق بوقوع انقلاب عسكري، وسلمت السلطة لتحالف القوى اليسارية الحزب الاشتراكي الديمقراطي العمالي الروسي (البلاشفة) والاشتراكيين الثوريين اليساريين والفوضويين.إني لاأستطيع أن أفسر بشكل آخر ماالذي جعل كيرنسكي لايتخذ أية إجراءات مسبقة، علماً بأنه قد تم تحذيره من قبل زينوفييف وكافييف، وماالذي جعل وزراءه، بكامل قوام الحكومة، ينتظرون الاعتقال بدلاً من أن ينظموا أي نوع من المقاومة، أو على الأقل أن يختفوا عن الأنظار.وبشكل مماثل، لاأستطيع أن أفهم كيف تسنى لألكسندر فيودور

---

28 بوريس فاسيلييف :«أحب روسيا في الضراء أيضاً» جريدة «إزفستيا » موسكو 16و17كانون الثاني (يناير)1989.

فيتش كيرنسكي الذي كانت كل روسيا تعرفه بالوجه، كيف تسنى له اجتياز الحدود هارباً برفقة عائلته ومعه أرشيفه الشخصي الضخم» [29]

وعن موقف المثقفين أو الانتلجنسيا الروسية من الثورة يقول الكاتب: «في العام 1917 عاد من المهجر بليخانوف معلم لينين وأول ماركسي في روسيا. وفجأة أصبح من أنصار الحكومة المؤقتة، واتخذ موقفاً سلبياً من إمكانية قيام ثورة اشتراكية في روسيا، مؤكداً بصراحة وعلانية أنه نظراً لقلة عدد البروليتاريا فإن الأمر سيفضي حتماً إلى الديكتاتورية. ومما قاله بليخانوف :«إن التاريخ الروسي لم يطحن بعد الدقيق الذي سيخبز منه، مع الزمن،رغيف الاشتراكية » لقد حدث أمر عسير على الفهم. وهو أن المثقفين الروس من النبلاء حتى الماركسيين رأوا في ثورة البلاشفة عصياناً وفتنة، قبل كل شيء... لقد تمكن كثيرون، عبر درب الآلام، من تجاوز نموذج العدو الموروث. ولكن الانتلجنسيا بأكثريتها إما لم تقبل بثورة اكتوبر بفعالية، أوأنها رفضتها بخصومة. لهذا فإن التعايش السلمي بين السلطة السوفييتية وبين الأحزاب والقوى الاجتماعية الأخرى في روسيا لم يستمر طويلاً[30]»

ويتابع الكاتب سرده للأحداث مبيناً رأيه فيها قائلاً:«انعقد في 5(18) كانون الثاني (يناير) من العام 1918 في قصر تافري، انعقد الاجتماع الأول (والوحيد) للجمعية التأسيسية. و لم يعترف بشرعيةمراسيم السلطة السوفييتية،

---

29 المصدر السابق.

30 المصدرالسابق.

واقترح مشاريع قرارات خاصة به واستمر الاجتماع حتى الساعة الرابعة و30 دقيقة من يوم 6 كانون الثاني في جو غير معقول من الضجيج واللغط والصفير والدربكة والطقطقة. لقد اعترفت إحدى المشاركات بالاجتماع بأن كلمات جيليز نيكوف لم تكن مسموعة بسبب الضجة، ولاتستطيع الجزم بأنها قيلت كما هي معروفة.ولكن، مهما يكن من أمر، ففي الساعة الرابعة بالضبط وقف رئيس حرس القصر التافري، عضو حزب الفوضويين وبحار أسطول بحر البلطيق جيليز نيكوف، وقف ليقول الكلمات التي اعتمدت رسمياً في تاريخنا :« لقد تعب الحرس» مقاطعاً بذلك رئيس الجلسة الاشتراكي الثوري اليميني فيكتور ميخايلوفيتش تشيرنوف، وتمكن من إنهاء الاجتماع. وبعد يوم بالضبط، في ليلة 6و7 كانون الثاني، أصدرت اللجنة التنفيذية المركزية لعموم روسيا مرسوماً،بحل الجمعية التأسيسية. وهكذا،أخلى الطريق البرلماني لتطور الديمقراطية في بلادنا، أخلى مكانه لأمد طويل لشتى أنواع الديكتاتوريات: من الحكومية (الشيوعية الحربية) إلى الفردية (الستالينية) ومهما تكن التسميات، فإن أسلوب الادارة الديكتاتوري هو في جوهره أسلوب القمع الأقصى للشخصية،وهو خطوة إلى الوراء في تطور الوعي المدني. «لقد تعب الحرس»ووقف مكان الحرس التعبان لوقت طويل غفراء لاينامون، ببذلات رسمية وبدونها،يحرسون الجميع وكلاً بمفرده من أي بصيص للفكر الحر. أعتقد أن ليلة يومي 5و6 كانون الثاني هي بداية رسم الخطوط بين القوى الروسية وبداية الحرب الأهلية، وهي الحد الفاصل بين

التفاهم والمجابهة وبين حكم القانون والأحكام الاستثنائية.وليست المشكلة في أنه هل كان من الممكن التصرف بشكل آخر، وإنما المشكلة في أول استخدام للقوة من أجل حل مسائل البناء السياسي القومي العام. إن النزوع الانساني لتطوير روسيا الذي بدأ بثورة بيضاء تهدف إلى الغنى الروحي والمادي قد انقطع منذ ذلك الحين[31]»

يفهم من الكلام السابق أن الحكومة المؤقتة التي تمثل البرجوازية الروسية وحلفاؤها والتي جاءت إلى السلطة عقب الاطاحة بالقيصرية في نهاية شباط عام 1917، وجدت نفسها في موقف صعب وحرج ومأزق خطير. فهي، من جهة، كانت ترغب في مواصلة الحرب (العالمية الأولى) لاسيما وأنها كانت تتعرض لضغوط شديدة من قبل جنرالات الجيش والحلفاء والغربيين لفعل ذلك ومن جهة ثانية.كان هناك استياء شعبي عارم من الحرب واستمرارها،مما أدى إلى رفض الجنود للقتال، وبدأ الجيش الروسي بالتفكك والانحلال. لذا، رأت البرجوازية الروسية أن من الأفضل لها أن تحني رأسها ريثما تمر العاصفة، وأن تهرب مؤقتاً من المواجهة وتحمل المسؤولية. ولما كان البلاشفة مندفعين لاستلام السلطة فقد تركتهم يستلمونها دون أن تبدي مقاومة تذكر. لقد كانت البرجوازية تأمل بأنه لن يمر إلا وقت قصير حتى تعيد ترتيب أمورها وتنظيم صفوفها لتصعد من جديد إلى سدة السلطة.ويبدو أنها كانت تراهن

---

31 المصدر السابق.

في ذلك، بالدرجة الأولى،على الجمعية التأسيسية. وقد استمرت الأحداث في السير وفق هذا السيناريو حتى يوم 6(19)كانون الثاني 1918 عندما خرج البلاشفة عليه، وقاموا بحل الجمعية التأسيسية، وانفردوا فعلياً بالسلطة. واتخذ مسار التطور في روسيا منحى جديداً منذ ذلك الحين،هو المنحى الذي حصل في الواقع وبات معروفاً للجميع.

من المعروف والمثبت تاريخياً أن لينين كان وراء قرار حل الجمعية التأسيسية.وقد دافع مراراً عن هذا القرار وحاول تبريره. ومما قاله في هذا المجال:« لقد أراد الشعب دعوة الجمعية التأسيسية ودعوناها.لكنه أدرك في الحال جوهر هذه الجمعية التأسيسية المزعومة. وهانحن الآن قد نفذنا إرادة الشعب، تلك الارادة التي تعلن كل السلطة للسوفييتات[32]»ويبقى غير مفهوم (بالنسبة لي شخصياً، على الأقل) كيف أدرك الشعب في بلد ضخم مثل روسيا في تلك الأيام الأولى من العام 1918حيث لاراديو ولاتلفزيون ولامواصلات ولااتصالات، وحيث الحرب والدمار والصقيع والفوضى وتفكك الجيش وكذلك الجهل والأمية والتخلف... كيف أدرك في الحال جوهر الجمعية التأسيسية المزعومة، والأهم من ذلك كيف عرف البلاشفة إرادة الشعب، وماهي المعطيات التي استندوا إليها والقنوات التي استقوا معلوماتهم منها عن إرادة الشعب؟! مع العلم أن الجمعية التأسيسية جاءت نتيجة لانتخابات شعبية عامة بإشراف الحكومة البلشفية (مجلس مفوضي الشعب).

---

32 لينين المؤلفات الكاملة المجلد35، الصفحة 241.

لقد عُرف عن الشيوعيين في العالم أنهم غالباً مايضعون إشارة مساواة بين إرادتهم هم وإرادة الشعب. وكثيراً ما أوقعتهم هذه المساواة في مطبات ومزالق. ولم يكن موقف لينين هذا موقفاً تكتيكياً عابراً أملته التعقيدات السياسية وتطور الأوضاع في البلاد، إنما كان جزءاً من عقيدته النظرية.فقد جاء في كتاب «تاريخ ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى » مايلي « وسخر لينين بحدة من المناشفة والاشتراكيين الثوريين الذين اتهموا البلاشفة بالاخلال «بمبادىء الديمقراطية » في مقالته بعنوان: «بليخانوف عن الارهاب » التي صدرت في نهاية ديسمبر (كانون الأول)1917.وكتب لينين أن بليخانوف في حينه(في عام1903)والذي كان حينذاك واحداً من ممثلي الاشتراكية الثورية المرموقين ذكر :«إن كل مبدأ من مبادىءالديمقراطية يجب أن ينظر إليه لامجرداً،بل في علاقته بذلك المبدأ الذي يمكن أن يسمى المبدأ الأساسي للديمقراطية وبالذات المبدأ الذي يعلن أن Salus Populi Suprema Lex (خير الشعب هو القانون الأعلى المحرر)وكتب لينين أن بليخانوف كان يعتبر في ذلك الحين أنه يمكن»حرمان أعداء الاشتراكية إلى حين ليس فقط من حصانتهم الشخصية ومن حرية الصحافة، بل ومن حق الانتخاب العام. يجب «حل » البرلمان السيء في اسبوعين. إن منفعة الثورة، منفعة الطبقة العاملة هي القانون الأعلى. هكذا كان يفكر بليخانوف عندما كان اشتراكياً.وهكذا كانت تفكر معه حينذاك الأغلبية الهائلة من المناشفة الحاليين...«[33]لكن الزمن تغير، وبالأصح أصبح »الإشتراكيون السابقون «أناساً آخرين خانوا المبادئ الثورية [34]»

---

33 لينين، المؤلفات الكاملة المجلد 35، ص185.

34 «تاريخ ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى»مجموعة مؤلفين دار التقدم موسكوعام 1977، ص399

وفي مقالته «كيف ننظم المبادرة؟»(6ـ9 كانون الثاني (يناير) 1918) أعلن لينين هدفاً واحداً مشتركاً هو «تطهير الأرض الروسية من جميع الحشرات الضارة، من البراغيث المحتالين،من البق.الأغنياء، وخلافه وماشابه[35]»من يقرأ هذه المقالة سيكتشف أن لينين يقصد بالحشرات الضارة ليس فقط أعداء الثورة والغرباء طبقياً بل وكذلك«العمال المتهربين من العمل» وغيرهم !! وإذا كانت انتخابات الجمعية التأسيسية قبل أقل من شهرين على صدور المقالة قد أعطت البلاشفة 25٪ من الأصوات فقط، وإذا قبلنا بالافتراض القائل بأنه حدث تزوير كبير في تلك الانتخابات، وأنه جرى بعدها انعطاف حاسم لصالح البلاشفة، فإن نسبة «الحشرات الضارة » إلى مجموع السكان في روسيا تبقى...الأفضل أن نترك تقديرها للقارئ !!أما نوعية الكلام المكتوب في المقالة فهي غير مقبولة بمعايير الأمس واليوم وكل يوم!..

وبالرغم من تأكيداته المستمرة وإصراره على ضرورة التحالف بين العمال والفلاحين أخذ لينين، بعد اندلاع الحرب العالمية يتجه اتجاهاً انعزالياً، ويرفض مبدأ التعاون أو التحالف مع الأحزاب الاشتراكية الأخرى في روسيا «كما يشير الدكتور ماهر الشريف، الذي يضيف قائلاً :«وبعد انتصار ثورة اكتوبر، راح لينين يندفع، شيئاً فشيئاً نحو تكريس نظام حكم الحزب الواحد.ففي العاشر من تشرين الثاني 1917، أصدر مجلس مفوضي الشعب مرسوماً يقضي بوقف صدور كل الصحف المناهضة للثورة.

---

35 لينين :«حول تربية الملاكات»دار التقدم،ص131(أو مؤلفات المجلد 35،ص204)

صحيح أن السوفييتات بقيت، لفترة من الزمن، تضم مندوبين عن الأحزاب الاشتراكية الأخرى، والتي شارك عدد من ممثليها في اللجنة التنفيذية المركزية لسوفييتات عموم روسيا، إلا أن مجلس مفوضي الشعب وقع، منذ البدء، تحت سيطرة البلاشفة وحدهم. وفي تلك الفترة، ظهرت معارضة جدية لتوجه البلاشفة نحو تركيز السلطة في أيديهم، وكان مركز هذه المعارضة في نقابة عمال السكك الحديدية، التي أعلن ممثلوها بأن دعمهم للبلاشفة مشروط بتوجه هؤلاء الأخيرين نحو تشكيل حكومة ائتلافية، يشارك فيها ممثلو الاتجاهات الاشتراكية الأخرى[36]»وبتأثير الضغط الجماهيري الواسع أوصت اللجنة المركزية لحزب البلاشفة »بدعوة ممثلي الاشتراكيين الثوريين«اليساريين»وحدهم، والذين كانوا يتمتعون بتأييد كبير في سوفييتات مندوبي الفلاحين، إلى المشاركة في حكومة البلاشفة، غير أن مشاركة الاشتراكيين الثوريين«اليساريين »في هذه الحكومة لم تدم أكثر من عدة أشهر، وجاءت المحاولة الانقلابية التي حاولوا تنظيمها ضد البلاشفة، في تموز 1918لتكريس القطيعة النهائية بين الطرفين [37]»

إن مواقف وآراء وتصرفات لينين في تلك الآونة، وقرارات السلطة السوفييتية بقيادته،كلها تشير إلى أنه كان رجلاً ملتهباً حماسة ثورية،مفعماً

---

36 د.ماهر الشريف :«عن بعض مظاهر أزمة الماركسية »دار الينابيع دمشق 1955،81

37 المصدر السابق ص82

بالأحلام الرومانسية، ممتلئاً عنفواناً، متيقناً كل اليقين بأنه يغير مجـرى التـاريخ ويقـود أعظـم انقـلاب فيـه ويدشـن عصـراً جديـداً هـــو عصـــر الاشـــتراكية والشيوعية، فاتحاً بذلك طريق البشرية نحو السعادة الشاملة والحرية الكاملة.

كما يتبين من خلال سجالاته المتعددة مع الآخرين أنه كان علـى قناعـة تامة ومطلقة بأن الثـورة العالميـة علـى الأبـواب، وأن ديكتاتوريـة البروليتاريـا أرقى شكل للديمقراطية، وأن سلطة السوفييت تبقـى «أكـثر ديمقراطيـة بـألف مرة من أوفر الجمهوريات البرجوازية ديمقراطية [38]»معتبراً أن من لايلحظ ذلك يكون خاضعاً للبرجوازية عن وعـي، أو أنـه انسـان ميـت سياسـياً تمامـاً..و لم يكن لينين ليهتم، من خلال مناقشاته وسـجالاته مـع خصومـه ومنتقديـه مـن التيارات الاشتراكية الأخرى، وبينهم مفكرون وعلماء ماركسيون كبـار مـن أمثال بليخانوف وكاوتسـكي ـ لم يكـن ليهتـم بإيجـاد نقـاط التقـاء وتفـاهم معهم، بل كان يسعى لتحطيمهم وتهزئتهـم وإثبـات «لامارکسيتهم»وكـان المحك في ذلك، بالنسبة له، هو الموقف من ديكتاتوريـة البروليتاريـا. لهـذا فـإن ستالين لم ينطلق من فراغ عندما قال :«إذا كانت اللينينية هي نظرية وتكتيك الثـورة البروليتاريـة، وإذا كـان مضمـون الثـورة البروليتاريـة الأساسـي هـو ديكتاتوربـة البروليتاريـا فـإن مـن الواضـح الرئيسـي في اللينينيـة هـــو مســألة ديكتاتورية البروليتاريا، هو تركيز هذه المسألة، وتبريرها نظرياً وتجسيدها [39]»

---

38 لينين «الثورة البروليتاريـة والمرتـد كاوتسـكي»(تشـرين الأول 1918) المختـارات في اربعـة أجزاء (بالعربية) الجزء الثالث ص208

39 ستالين :حول مسائل اللينينية.

كما أن ستالين وخلفاءه كانوا يقفون على أرض صلبة في كثير من آرائهم ومواقفهم وإجراءاتهم وممارساتهم المنسوبة إلى اللينينية وبالتالي، إذا كان صحيحاً القول،الذي مر معنا، بأن «قسطاً لايستهان به مما يطلق عليه اسم اللينينية والذي نهلنا منه جميعاً لم يكن في حقيقة الأمر إلاّ ستالينية أعيد تغليفها. فالكثير منه لم يكن إلا ستالينية تبحث عن مشروعية»، فإننا نجد صحيحاً أيضاً القول بأن قسطاً لايستهان به مما يطلق عليه اسم الستالينية ونشجبه وندين ستالين بسببه، إنما يعود في أصوله وجذوره إلى لينين. والكثير منه ماهو إلا لينينية قيد التنفيذ.

ولكن..صحيح أيضاً أن لينين كان يتعامل مع الماركسية بإبداع. فقد كان يرفض النسخ والنقل الميكانيكي والتطبيق الحرفي. وعندما كان يتوصل إلى قناعة معينة بقضية ما فإنه كان يطرح قناعته بصراحة ويدافع عنها بقوة، ويدعو إلى تبنيها حتى لو كانت تتعارض مع المخطط الماركسي، أو مع هذا القول أو ذاك لماركس أو أنجلس (بغض النظر عن رأينا حالياً بصحتها أو عدم صحتها)، وحتى لو تعارضت مع مواقف وأقوال سابقة له نفسه.ففي مثل هذه الحالات ماكان يتوانى عن انتقاد الذات والاشارة إلى الخطأ في التقدير أو إلى التطورات التي طرأت على الظروف مما استوجب التغيير والتعديل. ولكن، للأسف الشديد،فإن هذه الصفة اللينينية بالذات غابت عند أتباعه، بعد سيطرة الستالينية وصار الشيوعيون «يؤمنون »بالماركسية اللينينية، التي راحوا ينظرون إليها باعتبارها الماركسية وقد أنجزت وأكملت على يد

لينين، وأصبحت نظرية شاملة وكاملة تصلح لكل زمان ومكان، نصوصها مقدسة، وأحكامها صحيحة على الدوام!

لقد كان لينين يتفاعل مع الأحداث بديناميكية عالية ورهافة وَبُعد نظر لذا أدرك من خلال مأساة الحرب الأهلية وعبر تجربة الشيوعية الحربية أدرك، قبل كل رفاقه الآخرين، ضرورة إحداث تغيير جذري وانعطاف حاسم ليس في الممارسة فقط بل وفي المفاهيم والأفكار أيضاً. وتمخض ذلك عن «السياسة الاقتصادية الجديدة » (النيب)وعن اعتماد مفهوم جديد للاشتراكيةيرى أنها «نظام التعاونيين المتمدنيين [40]»لقد كان اصطدام الأفكار الطيبة مع الواقع المرير باعثاً قوياً له للتخلي، في السنوات الأخيرة من حياته، عن كثير من الأحلام والأوهام والمثاليات.

لكل ماتقدم أجد نفسي متعاطفاً مع رأي الدكتور ماهر الشريف القائل :«كي نتمكن من تأصيل الماركسية في مجتماتنا العربية وننجح في تعريبها، أي في إعادة انتاجها بما يتلاءم مع ظروفنا الملموسة، أعتقد أن من الضروري أن نهجر اللينينية كما قدمت إلينا وتعاملنا معها حتى الآن، سنظل نؤمن بالدور التاريخي الذي لعبه لينين، قائد الثورة العظيمة، التي شكلت منعطفاً نوعياً في تاريخ نضال الانسان ضد الاستغلال والاضطهاد ومن أجل المساواة والحرية، ولكن علينا في الوقت ذاته الاقرار بأننا لن نجد في كتاباته أجوبة عن أسئلة

---

40 لينين مختارات في أربعة أجزاء (بالعربية) الجزء الرابع ـمقالة «حول التعاون»ص289

الحاضر، وأن الأفكار والاستخلاصات التي طرحها لايمكن نزعها من سياقها التاريخي وأنه لن يبقى محافظاً على حيويته سوى المنهج الذي اتبعه، والذي لم يكن، في الواقع، غير منهج ماركس الجدلي [41]»

لقد ظل النظام السوفييتي طوال حياته التي دامت أكثر من 74 سنة بقليل يعلن عن بناء الاشتراكية والاشتراكية المتطورة والشيوعية على أساس النظرية الماركسية بداية (في عهد لينين) وعلى أساس الماركسية اللينينية فيما بعد. ورسخ في أذهان الناس في القرن العشرين أن الاتحاد السوفييتي والبلدان الأخرى التي تحكمها الأحزاب الشيوعية هي بلدان اشتراكية (جوهر الأنظمة في كل هذه البلدان واحد، مقتبس عن النموذج السوفييتي) وصار أمراً طبيعياًربط الاشتراكية فكراً وممارسة بالنظام السوفييتي. ولن يكون سهلاً على أي كان الفصل بينهما. إذ سيظل يشار إلى التجربة السوفييتية بالتجربة الاشتراكية الأولى، وإلى مشروع البناء السوفييتي بالنموذج الاشتراكي السوفييتي وماشابه ذلك.....

وهذه إحدى أهم الاشكاليات النظرية والعملية التي ستبقى ردحاً طويلاً من الزمن في المستقبل تلقي بثقلها على كاهل الفكر الاشتراكي والحركة الاشتراكية العالمية. وستستمر البحوث والدراسات والمناقشات والجدل حول طبيعة النظام السوفييتي ومدى اشتراكيته ومدى ماركسيته.

---

41 د. ماهر الشريف مصدر سابق، ص22

وبالرغم من تباين الآراء الشديد حول هذه المواضيع، فإننا نلحظ في الآونة الأخيرة أن نتائج معظم الأبحاث والدراسات الجادة والموضوعية تذهب مذهب المفكر الفرنسي المعروف روجيه غارودي الذي قال في كتاب له عن التجربة السوفييتية صدر مؤخراً :«إن مامات مع الاتحاد السوفييتي ليست الماركسية وإنما صيغتها الكاريكاتورية المأساوية[42]»باعتقادي، أنه يمكن تعميم هذه الفكرة على النحو التالي إن ماسقط مع الاتحاد السوفييتي ليست الاشتراكية وإنما نموذج كاريكاتوري مأساوي لها. فالنظام السوفييتي ليس نظاماً اشتراكياً بالمعنى العلمي الانساني الصحيح للاشتراكية، وإنه لأمر خاطىء نظرياً وضار عملياً اعتباره كذلك. لأنه وفقاً للمنطق الماركسي وطبقاً للمنهج الجدلي المادي التاريخي لايمكن للزمن والتطور أن يسيرا إلى الوراء، ولايمكن للتاريخ أن يعود القهقرى، والناس ليسوا حمقى، والشعوب ليست غبية أو مجنونة حتى ترفض نظاماً اشتراكياً حقيقياً يضمن مصالحها ويصون كرامتها ويحترم انسانيتها ويخدم تطورها وتقدمها ورقيها،أو حتى تتخلى عنه وتتركه يتداعى وينهار أمام أعينها دون أن تحرك ساكناً للدفاع عنه والتمسك به، لتبدأ بعد ذلك من جديد رحلة حرمان وعذاب و معاناة في مجاهل الرأسمالية الاستغلالية المظلمة وعلى دروبها الوعرة والشائكة ! هل يعقل أن تقوم عشرات الشعوب ومئات ملايين البشر بمثل هذا الارتداد

---

42 روجيه غارودي :«الاتحاد السوفييتي بين الأمس وماصار إليه..»ترجمة قصي أتاسي وميشيل واكيم دار طلاس 1994 ص125

والنكوص الجماعي من تشكيلة اقتصادية اجتماعية راقية إلى أخرى أقل تطوراً وأدنى مستوى؟!وهل يصح إطلاق صفة الاشتراكية على نظام يقال عند تقويمه إن فيه «قد سحقت أو شوهت كل الصيغ الانسانية في الحياة الاجتماعية[43]»؟!

لقد ورد هذا التقويم على لسان روجيه غارودي في كتابه الذي أشرنا إليه، علماً بأن الكاتب يدافع بقوة عن الاشتراكية، ويشن هجوماً عنيفاً على الرأسمالية وطغيانها ومظاهر العنف والعربدة والعهر فيها،ويعبر عن أسفه وأساه لانهيار الاتحاد السوفييتي وعودة الرأسمالية إلى روسيا، ويستخدم في عرضه للأحداث معلومات مستقاة من المصادر الرسمية السوفييتية السابقة،التي يبدو أنه مازال مقتنعاً بها ومصدقاً لها.

وفيما يخص مبدأ الاشتراكية الأساسي « من كل حسب جهده ولكل حسب عمله»فلم يكن موجوداً إلا على الورق. فقد جرى تعميم المساواتية الشكلية، وألغي دور السوق، وغابت الديمقراطية، وسادت المركزية المفرطة والبيروقراطية الشديدة. وكانت النتيجة المدمرة ألا وهي فقدان الحافز للعمل.

هذا، ولايمكن اعتبار النظام السوفييتي نظاماً اشتراكياً من وجهة نظر لينين أيضاً(لينين الأخير،لينين مابعد النيب) إن معظم الناس على كوكبنا يدركون جيداً الآن أن المجتمع السوفييتي كان بعيداً جداً عن أن يكون مجتمعاً

---

43 المصدر السابق ص118.

للتعاونيين المتمدنين أو المتحضرين، أي مجتمعاً اشتراكياً بحسب مفهوم لينين. إن ماحصل في الواقع هو أن مفهوم لينين القديم عن الاشتراكية الذي طرحه عام 1917 والقائل إن «الاشتراكية ماهي إلا رأسمالية دولة احتكارية موجهة لخدمة كل الشعب،وبهذا الشكل لاتعود احتكاراً رأسمالياً [44]»هو المفهوم الذي ظل سائداً، وشكل الأساس النظري لعملية البناء التي تمت لاحقاً.وفي ضوء هذا المفهوم اختزلت المهام المعقدة والمتنوعة لعملية التحويل الاشتراكي إلى مسألة رئيسة واحدة هي تطوير ملكية الدولة، أي جعل الدولة مالكاً احتكارياً شاملاً. مما يستدعي، بطبيعة الحال، تقليص الشكل التعاوني للملكية والخلاص من الاقتصاد الفردي. من هذا المنطلق قاموا، في الاتحاد السوفييتي في بداية الثلاثينات، بإلغاء كل التعاونيات باستثناء الكولخوزات، أي الجمعيات التعاونية الفلاحية. ولكن، فرضت على هذه الأخيرة تعقيدات كثيرة جعلتها لاحقاً، من خلال الممارسة، لاتختلف إلا قليلاً جداً عن السوفخوزات (مزارع الدولة) و لم يبق من الملكية التعاونية الزراعية إلا الاسم فقط، في معظم الحالات وأصبح الفلاحون عملياً أقرب إلى العاملين أو الموظفين.فهم يخرجون إلى العمل، يقضون وقتاً معيناً، ويشتغلون بشكل ما، ويتقاضون أجراً ما لقد انتزع من الفلاحين أغلى وأهم ماعندهم فلاحيتهم!

وينبغي القول، للحقيقة والتاريخ، إنه توجد لدى لينين كتابات وملاحظات عديدة منذ عام 1920 تشير بوضوح إلى أنه كان يتنبأ بمجيء

---

44 لينين المؤلفات الكاملة، المجلد 34، الصفحة 192.

لحظة الانهيار الرهيب، ويتوقع أن ينتهي مشروعه بالاخفاق.ونجد تأكيداً لهذه المقولة في ما أورده روجيه غارودي في الصفحة 117 من كتابه المذكور أعلاه، حيث ذكر مايلي:وفي كتاب مذكرات بوريس بازانوف السكرتير السابق لستالين وهو كتاب لم ينشر إلا في عام 1980ـ جاء أن لينين في صحواته القصيرة قبل موته وعندما كان يسترجع قدرته على الكلام كان يقول «بدهي أننا قد أخفقنا.كنا نريد أن نبني مجتمعاً اشتراكياً جديداً بتعويذة سحرية...بينما يقتضي هذا المشروع الطويل عشرات السنين وعدة أجيال...إن عقيدة الناس وألوان سلوكهم المكتسبة لايمكن أن تتغير في لحظة».

إن إدراك لينين لهذه الحقيقة ووعيه لها شيء يشرفه، ويعلي قدره، ويزيد الاحترام له والاعجاب به. ولكن هذا لايغير شيئاً من الواقع التاريخي فما جرى قد جرى. وارتسمت صورة كاريكاتورية مأساوية للاشتراكية، كان هو البادئ في حمل الفرشاة لرسمها.

ولكن ماذا عن النجاحات والمنجزات ؟...ألم يكن التعليم مجانياً وكذلك الطبابة ؟ ألم يكن حق العمل مضموناً، حيث لابطالة أبداً ؟.. مما لاشك فيه أن منجزات باهرة ومكاسب كبيرة قد تحققت لصالح الشعوب في الاتحاد السوفييتي وفي غيره من البلدان التي كانت ولايزال بعضها يسمى اشتراكية. إن مجانية التعليم والطبابة وضمان حق العمل كلها ميزات لمجتمع حضاري راق وعادل، وبالتالي، فهي تصلح تماماً لأن تكون سمات اشتراكية، أو كما

يقول المفكر الماركسي العراقي الأستاذ عامر العبد الله «وقد جاءت هذه المنجزات أشبه برصيد اختباري لمآثر وقيم الاشتراكية، والجوهر الانساني للاشتراكية وذلك من خلال نموذج للاشتراكية مثقل بالخطايا والنواقص والاختلالات [45]»

لقد أصبح الكل يعرف الآن أن الصورة لم تكن زاهية وبراقة كما كانوا يتحدثون، وأن التطبيق العملي لكثير من تلك المنجزات كان رديئاً أحياناً، وشكلياً ودعائياً في أحياناً أخرى. أما الطرق والوسائل والأساليب التي اتبعت لتحقيقها فكانت، في الغالب، قسرية وقمعية وعنيفة. والأهم من كل ذلك أن الثمن الذي دفعته شعوب الدول المذكورة، وبخاصة شعوب الاتحاد السوفييتي، مقابل تلك المنجزات كان ثمناً باهظاً جداً، لايمكن القبول به ولاتبريره لا أخلاقياً ولا اقتصادياً. لنأخذ، على سبيل المثال، مااصطلح على تسميته »نشر التعاون في الزراعة »الذي أنجز للمرة الأولى في الاتحاد السوفييتي في بداية الثلاثينات.

لقد درج الشيوعيون على اعتبار ذلك الانجاز نجاحاً كبيراً، لابل انتصاراً عظيماً للمشروع الاشتراكي والنموذج السوفييتي. غير أن الواقع يشير إلى عكس ذلك. لقد بات معروفاً أن روسيا (ومن ثم الاتحاد السوفييتي) ظلت تصدر القمح حتى عام 1932 أي حتى تم نشر التعاون في الزراعة، ومنذ ذلك

---

45 عامر العبد الله«لماذا انهار الاتحاد السوفييتي ونظامه؟»مجلة «الطريق » العدد 4 تموز- يوليو 1994

الحين وحتى يومنا هذا راح الاتحاد السوفييتي (ومن ثم روسيا) يستورد القمح. وقد ترافقت تلك العملية مع حملة قاسية من الارهاب الدموي والقمع الشديد جعلتها واحدة من أكبر وابشع الجرائم في القرن العشرين. وكانت من نتائجها المباشرة ليس فقط إبادة طبقة الفلاحين، وإنما أيضاً مجاعة رهيبة راح ضحيتها مالايقل عن ثلاثة ملايين انسان.

هناك مصادر تشير إلى أن عدد الذين ماتوا جوعاً في تلك الآونة في الاتحاد السوفييتي بلغ ستة ملايين نسمة. لقد أخفت الدعاية السوفييتية هذه الحقيقة طويلاً، وحاولت تجاهلها والتغاضي عنها، ثم دأبت بعد أن بدأت أخبار تلك المأساة الانسانية الكبرى بالشيوع والانتشار دأبت على نفيها ونكران حدوثها. ولكن الحقيقة ظهرت وبانت أخيراً. وقد ساهم في الكشف عنها كتاب وأدباء وفنانون كثيرون، من بينهم الكاتب الشهير جنكيز ايتماتوف (أحد كبار رجالات البيريسترويكا العظيمة) الذي تحدث عن معاناته الشخصية من تلك المجاعة. ومن الجدير بالذكر أن أعضاء الجمعيات التعاونية الزراعية، أي الفلاحين الكولخوزيين، كانوا ممنوعين منعاً باتاً من ترك أماكن عملهم، ويحظر عليهم، تحت طائلة العقوبات الشديدة، الانتقال إلى أعمال أخرى وأماكن جديدة،وكانت إحدى الوسائل الناجعة لضمان تنفيذ ذلك هي حرمان الكولخوزيين من بطاقات الهوية الشخصية. وظل الوضع على هذا المنوال حتى عام 1955، حيث ألغي بأمر من خروشوف. وحصل

الفلاحون الكولخوزيون وقتها على هويات شخصية، وتساووا بالحقوق مع بقية مواطني بلادهم!!

إن نشر التعاون في الزراعة هو من حيث المبدأ ومن الناحية النظرية انجاز كبير ومؤشر هام على وجود علاقات انتاج اشتراكية، ولكن ماجرى في هذا المجال في الاتحاد السوفييتي لايمكن اعتباره نجاحاً بالمعايير الاقتصادية والاجتماعية والانسانية لا من حيث النتائج ولامن حيث الوسائل والأدوات وطرق التنفيذ. إنما هو، في حقيقة الأمر، إخفاق شامل وفشل ذريع.

عندما كنا طلاباً ندرس في الاتحاد السوفييتي، كان زملاؤنا الروس والأوكرانيون يروون لنا نكات سياسية متنوعة، من بينها سلسلة طويلة تنسب إلى راديو أرمينيا. تقول إحدى هذه النكات:

ـ سئل راديو أرمينيا هل يمكن أن يصاب الجمل بالفتاق؟

ـ الجواب: نعم، إذا حاول رفع مستوىالزراعة السوفييتية !

إن أداء السلطة السوفييتية في المجال الزراعي كان متدنياً على الدوام. كما أن الجانب الزراعي في المشروع الاشتراكي الذي تحقق هو الجانب الأكثر ضعفاً والأقل كفاءة. ولكن، وبالرغم من ذلك، فإن الوثيقة البرنامجية للحزب الشيوعي السوري التي أقرها المجلس الوطني للحزب ماتزال تعتبر »نشر التعاون في الزراعة » أحد النجاحات الكبيرة للمشروع الاشتراكي الذي قام في الاتحاد السوفييتي وعدد من بلدان أروبا الشرقية. وقد ورد هذا الكلام في فقرة ضمن الفصل الأخير الذي يحمل عنوان «الاشتراكية ».

لاأظن أحداً يجادل في أن الوثيقة البرنامجية موضوعة أولاً للمستقبل، وثانياً لبلادنا. لذلك أليس غريباً أن تتوقف الوثيقة للتحدث مطولاً عن الماضي في بلاد أجنبية،من خلال فقرة خارجة عن السياق العام للنص، ولامحل لها من الاعراب ؟! إن الاستفادة من دروس الماضي واستيعاب تجارب الآخرين من الأمور الهامة والضرورية. ولكن، يجب أن يتجلى ذلك ويظهر من خلال طروحاتنا وبرامجنا وتصوراتنا ومانضعه في الوقت الحاضر من مهمات وأهداف للمستقبل، وليس من خلال التكرار الممل لنجاحات الآخرين ومآثرهم (بما فيها الوهمية، مثل نشر التعاون في الزراعة)، تلك النجاحات والمآثر التي لاتخفيها ولاتزيلها، كما تؤكد الوثيقة البرنامجية،«الأخطاء الكثيرة التي وقعت، وأشكال القمع التي مورست، بسبب المركزية الشديدة ورفض التعددية السياسية، وعدم اقتران الديمقراطية الاجتماعية بالديمقراطية السياسية»!!

إن هذا الكلام، من وجهة نظري، يشبه إلى حد كبير أن يقول شخص ما لآخر لقد أطعمتك وسقيتك وكسيتك وآويتك، وهذه كلها حقائق لايخفيها ولايزيلها أنني شتمتك وصفعتك على وجهك وضربتك على قفاك ودست على رقبتك !!

لاأستطيع أن أمنع نفسي من التساؤل :ماهي الحكمة من مثل هذا الكلام؟ ولمصلحة من يقال؟ وماهي الفوائد التي يجلبها للحزب ؟ إن إمعان النظر في هذا الكلام يظهر لنا بوضوح أنه إعادة اعتبار وصياغة جديدة لمفهوم

«المستبد العادل » القروسطوي الذي عفى عليه الزمن و لم يعد يحلم به إلا السذج والمغفلون من الناس.

إني أقترح على كل المهتمين أن يقرأوا فصل الاشتراكية في الوثيقة البرنامجية للحزب بدون الفقرة الماضوية التبريرية المشار إليها، ليتأكدوا بأنفسهم كم سيكون ذلك الفصل جيداً ومتماسكاً ومتقدماً.

إن وجود تلك الفقرة وما يشبهها في ثنايا النص المختلفة إنما يدل على أن قوى الشد إلىالوراء ماتزال تفعل فعلها وتمارس نفوذها وتأثيرها بحيث لم يستطع الحزب، حتى الآن، الإفلات من أسر الماضي وفك القيود المختلفة وأولها وأكبرها القيد المثلث.

وإني لآمل بأن يكون البحث المقدم في هذا الكتاب إسهاماً في كسر القيود وتحطيم الحواجز وتخطى العقبات وتجاوز العواقب التي تحول دون انطلاق الحزب الشيوعي السوري إلى أمام، إلى الأعلى والأرقى والأفضل، إلى رحاب المستقبل المشرق، لما فيه خير شعبنا وأمتنا والبشرية جمعاء.

نحو المستقبل
أو بدلاً من الخاتمة

لو طلب مني إعداد مشروع بيان لمخاطبة الشعب باسم الحزب الشيوعي السوري بمناسبة الذكرى القادمة (الحادية والسبعين) لتأسيسه، لقدمت مشروع البيان التالي :ياأبناء وبنات شعبنا!

إننا في الحزب الشيوعي السوري وبعد دراسة مستفيضة ومتأنية وعميقة لتجربتنا السابقة، نعلن بكل الجديةوكامل المسؤولية مايلي:

1ـ لقد كنا ومانزال وطنيين وقوميين مخلصين، نطمح إلى الحرية والعدالة والمساواة، ونكره الظلم والاستغلال والاستعباد والتسلط، هذا هو معدننا وهذي هي أرومتنا. إن الأساس فينا جيد ويصلح لمتابعة السير على دروب النضال والعمل الوطني والنشاط السياسي. إننا ندرك أهمية وضرورة إحداث تغييرات كبيرة في الأسلوب والسلوك والمنهج والخطاب السياسي والفكر والتنظيم... إننا نعي ضرورة نفض الغبار وتقليم الأغصان اليابسة وتعشيب

الأرض للخلاص من كل ماهو ضار وفات أوانه، وليبقى كل ما هو أصيل وراسخ وصالح للعيش واستمرار الحياة.

2- لقد كنا من أنصار نموذج محدد أخذناه عن السوفييت،واعتقدنا أنه الاشتراكية الفعلية.وكنا نرغب في تطبيقه في بلادنا وبأساليبهم أيضاً، حيث عملوا على قصقصة وتقليم الانسان ليتطابق مع النموذج.أما الآن فإننا لن نلتزم بنموذج بعينه. سنضع تصورات واتجاهات عامةومرحلية، بحيث يكون كل شيء قابلاً للقصقصة والتقليم ليتطابق مع الانسان في اللحظة التاريخية المعينة.

3- كنا نرى أن الاشتراكية تبني بناءً، أما الآن فإننا على قناعة بالانتقال التدريجي والتطور الارتقائي حيث ستولد الاشتراكية من أحشاء الرأسمالية. ونرى أن المرحلة الراهنة تتطلب رفع الرايات النهضوية والتنويرية والعقلانية والديمقراطية والتنموية. إن تحقيق هذه المهمات الرئيسة يجعلنا قريبين من الاشتراكية، كما نتصورها اليوم

4 - كنا ماركسيين لينينيين، نفهم الماركسية بحسب لينين وعلى الطريقة السوفييتية.أما الآن فنقول إننا ماركسيون، نعتمد المنهج الجدلي المادي التاريخي. وندين ونشجب الستالينية، وننتقد التجربة السوفييتية ونستفيد من دروسها. ونؤكد بأننا سنسعى ونجد وننشط لتعريب الماركسية، أي انتاج ماركسيتنا الخاصة.

5 - كنا نعتقد بأننا نملك الحقيقة، والآن نحن مقتنعون بأن الحقيقة أكبر بكثير من أن يمتلكها أو يحتكرها أحد.إنها موزعة بين الجميع.

6 ـ كنا نريد الوصول الى السلطه لكى نبني الاشتراكيه كما فهمناها ؛ ولكننا الان نرغب في الديمقراطيه و نريدسلطه الشعب. ان نشاطنا سياسي وفكري يهدف الى قيام سلطة الشعب و دولة القانون و المؤسسات.

7 ـ لقد كنا غير ديموقراطيين, ونفصل الديموقراطية السياسية عن الاجتماعية،و نفتخر بدكتاتورية البروليتارية، ونكره النقد.أما الآن فاننا نعبر عن ايماننا بالديمقراطية و تمسكنا بها، لأننا نجد فيها احد المكونات الأساسيه للاشتراكيه و الطريق المؤدي اليها.اننا نرفض كل اشكال الاضطهاد والقمع والديكتاتورية.

8 ـ كنا نعتقد بأولوية وشمولية الصراع الطبقي والتحليل الطبقي أما الآن فإننا مازلنا نؤكد على أهمية الصراع الطبقي، ولكننا نضع في المقدمة مصلحة الانسان ونعطي الأولوية لخير البشرية.وفي الوقت الذي نرى فيه أن التحليل الطبقي ضروري ولاغنى عنه فإننا لانزعم وحدانيته وشموليته.إننا نرى أيضاً الجوانب والمكونات والمقومات والمؤثرات الأخرى، غير الطبقية، للظواهر والأشياء.

9 ـ كنا لانجيد الربط الصحيح بين القومي والأممي. أما الآن فإننا سنسعى جاهدين لإصلاح هذا الخلل، بحيث نضع على الدوام مصالح شعبنا في المقدمة، مع التأكيد على أهمية البعد الانساني وضرورة احترام حقوق الآخرين وآرائهم،بخاصة في هذه المرحلة التاريخية التي أنجزت فيها وحدة

العالم، مما يتطلب عولمة النضال، الأمر الذي يجعل شعار «ياعمال العالم اتحدوا» محتفظاً بحيويته وراهنيته.

10ـ كنا مقصرين في مجال الثقافة والفكر، ونعد الآن بأن نوليهما الاهتمام اللازم وسندعم المواهب والابداع، ونشجع المبادرة والتأليف والترجمة، ونفتح الأبواب أمام الحوار والنقاش وتبادل الآراء وصراعها.

11ـ لقد كنا من أنصار التنظيم الهرمي المغلق والمركزية الديمقراطية التي لم تكن في الواقع إلا مركزية بيروقراطية مفرطة. أما الآن فإننا مع التنظيم العلني المفتوح والديمقراطية والشرعية.

12ـ كنا نجيز ونستسيغ استخدام العنف ضد القوى المعادية أو المعارضة.أما الآن فإننا نرفض استخدام العنف من قبل أية قوة سياسية سواء أكانت معنا أم ضدنا، وننبذ الارهاب، ونؤيد حق الدفاع عن النفس، ونطالب بالتقيد بالدستور والقوانين، والنضال من خلالها. إننا نتوجه إلى الجميع قائلين لنتجادل بالكلمة، لنتناقش بشرف، لنتخاصم بأدب، لنختلف باحترام، لنتعاد بأخلاق، لنكن حضاريين ومتمدنين. عندها سنصادق بإخلاص ونحب بتألق ونعيش بسعادة.

يا أبناء وبنات شعبنا !

إننا نرغب لحزبنا أن يكون حركة شعبية اشتراكية ديمقراطية يسارية، تتحسس هموم وآلام وآمال الجماهير العريضة وتسعى لتحقيق مطاليبهاوطموحاتها، حركة :

خيارها الاشتراكية

أسلوبها الديمقراطية

أساسها الشرعية

وسيلتها المنهج الجدلي المادي التاريخي

أهدافها الحرية والعدالة الاجتماعية والتقدم والوحدة العربية والسلام والأخوة بين الشعوب.

غايتها: وطن حر وشعب سعيد!

حمص أيلول 1995

هذا الكتاب

هذا الكتاب محاولة لرصد واقع الشيوعيين القائم ولتقصي أسباب الأزمة عندهم، مع وقفة عند ما نراه من أهم الكوابح والمعوقات التي تحول دون إجراء عملية تغيير جذرية في صفوفهم، مع تقديم بعض التصورات والاقتراحات التي نراها مفيدة للخروج من المأزق، ولقيام حركة اشتراكية يسارية ديمقراطية ذات حضور جماهيري واسع ومؤثر محلياً وعربياً.

«المؤلف»

دار الينابيع
«للطباعة والنشر والتوزيع»
دمشق ص.ب 6348
6316950 ☎

دار النهضة للنشر والتوزيع
القاهرة: ت / فاكس 348018